# المستشرقون الفرنسيون وتحقيق التراث العربي الإسلامي
# " ألفريد أكتاف بل أنموذجا"

**د/ مصطفى علوي***

**-الملخص:**

يعتبر الاستشراق مدرسة من مدارس الغرب التي اهتمت بدراسة الثقافات الشرقية بشكل عام بما في ذلك الثقافة العربية الإسلامية، وقد اهتمت المدرسة الاستشراقية بمجالات مختلفة منها الفنون والعلوم والآداب وأبدت عنايتها على ترجمتها.و من المؤلفات التي أثارت انتباه المفكرين والباحثين المعاصرين، كتاب « الاستشراق» الذي كتبه إدوارد سعيد (Edward said) سنة 1978م باللغة الانجليزية ثم ترجم إلى اللغة العربية.

وبعد احتلال فرنسا لأقطار عربية وإسلامية زاد اهتمام المستشرقين الفرنسيين بالتراث العربي الإسلامي، وكان من بينهم منهم ألفريد أكتاف بل(Alfred Octave Bel) الذي اهتم بدراسة التراث الجزائري والمغربي وذلك من خلال ما حققه من مخطوطات أو أعمال الترجمة، لكنه على ما يبدو وقع في أخطاء علمية قد تكون بقصد أو بغيره. لهذا سنتعرف على ألفريد أكتاف بل(Alfred Octave Bel) وأهم آثاره العلمية مع الوقوف عند *الأخطاء التي وقع فيها حسب ما أورده المؤرخ المغربي الدكتور محمد حجي.

**Abstract:**

Orientalism is considered as one of the Western schools, which was interested in studying Eastern cultures in general, including the Arab-Islamic culture, it focused on different fields, such as, arts, science, literature and cared for translating it, one of the writings that attracted the attention of, both contemporary thinkers and researchers, was the book of « Orientalism » which was written by « Edward Said » 1978 in English then it was translated to Arabic.

* -أستاذ بكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة بشار، الجزائر.

83- نفسه، ورقة 66 و.
84- نفسه، ورقة 80 ظ.
85- نفسه، ورقة 55 و.
86- نفسه، ورقة 87 ظ- 88 و.
87- نفسه، ورقة 29 ظ.
88- نفسه، ورقة 92 و.
89- نفسه، ورقة 80 ظ.
90- نفسه، ورقة 66 و.

60- المازوني أبو عمران موسى بن عيسى المغيلي(ت 833 هـ/1429 م)، قلادة التسجيلات والعقود وتصرف القاضي والشهود، خزانة العائلة العثمانية، مكتبة زاوية علي بن عمر، طولقة، الجزائر، مخ رقم: ج 124 خ 252 ع، ورقة 28 ظ.

61- ابن القلوذي: ورقة 66 و.

62- أبو علي الحسن بن رحال المعداني: كشف الصناع عن تضمين الصناع، تح: محمد أبو الأجفان، الدار التونسية للنشر، تونس، 1986، ص 100.

63- ابن القلوذي: ورقة 88 و.

64- المناديل: مفردها منديل، كلمة لاتينية معربة أصلها في اللاتينية Mantele منتيل واللفظ مركب Manus مانوس: أي يد و Tela تيلا: أي نسيج ومعناها كاملا قطعة النسيج التي كانت تستخدم لتجفيف اليدين بعد الأكل أو توضع على الصدر عند الجلوس على مائدة الطعام، والمنديل نسيج من قطن أو حرير أو نحوهما مربع الشكل يمسح به العرق أو الماء وللمنديل استعمالات كثيرة منها تغطية أطباق الحلوة، تجفيف الجسد بعد الاستحمام، شد الوسط بدل الحزام، لف الرأس بدلا عن العمامة. رجب عبد الجواد إبراهيم: ص- ص 481-483.

65- ابن القلوذي: ورقة 83 ظ.

66- نفسه، ورقة 82 ظ.

67- نفسه، ورقة 63 ظ.

68- نفسه، ورقة 64 ظ.

69- نفسه، ورقة 64 ظ- 65 ظ.

70- نفسه، ورقة 63 ظ.

71- الرمكة: الفرس التي تتخذ للنسل. ابن منظور أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي المصري (ت 711 هـ/1311 م)، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، ط1، دار صادر، بيروت، 1955، مادة (رمك)، ج 10، ص 432.

72- المازوني: ورقة 83 ظ.

73- ابن القلوذي: ورقة 58 و.

74- نفسه، ورقة 84 و.

75- نفسه، ورقة 87 ظ.

76- نفسه، ورقة 82 ظ.

77- بوتشيش إبراهيم القادري، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، المجتمع، الذهنيات، الأولياء، ط 1، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1993، ص 31.

78- رشيد بورويبة: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977، ص 163.

79- ابن القلوذي: ورقة 85 ظ.

80- نفسه، ورقة 85 و.

81- نفسه، ورقة 30 و- 30 ظ.

82- نفسه، ورقة 87 ظ- 88 و.

39- نويهض عادل، معجم أعلام الجزائر، ط 2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت، 1980، ص 271.
40- الغبريني: ص 221.
41- ابن فرحون برهان الدين أبي الوفاء إبراهيم بن محمد اليعمري المالكي (ت 799 هـ/1396 م): الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تح: مأمون بن محي الدين الجنان، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ص 283.
42- الحفناوي: ج 2، ص 291.
43- نويهض: ص 164.
44- ابن مرزوق الخطيب أبو عبد الله محمد التلمساني (ت 781 هـ/1379 م)، المناقب المرزوقية، تح: سلوى الزاهري، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2008، ص- ص 301-302.
45- مخ، مكتبة مؤسسة الملك عبد العزيز، الدار البيضاء رقم: Ms510- M4.
46- نفسه، ورقة 17 ظ.
47- عبد اللطيف الشيخ: ج 2، ص 422.
48- هذا المخطوط لا يزال قيد التحقيق والإعداد للنشر من طرف الأستاذة مجاني بوبة رفقة فرقة بحث في مخبر البحوث والدراسات في حضارة المغرب الإسلامي بقسنطينة.
49- ابن القلوذي: ورقة 3 ظ.
50- كله: كلمة فارسية معربة معناها سقف الدار، أي شيء بمنزلة السقف، وقد أطلقت في العربية على غشاء من ثوب رقيق يتوق به من البعوض والكلة الستر الرقيق يخاط كالبيت يتوق فيه من البق، رجب عبد الجواد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، ط 1، دار الأفاق العربية، مصر، 2002، ص- ص 433-434.
51- حجلة: ساتر كالقبة يزين بالثياب والستور للعروس وقيل: هي ستر يضرب للعروس في جوف البيت. نفسه، ص 127.
52- بن القلوذي:، ورقة 7 و.
53- نفسه، ورقة 71 ظ.
54- رداء: ما يلبس فوق الثياب كالجبة والعباءة ويستر الجزء الأعلى من الجسم. رجب عبد الجواد إبراهيم: ص194.
55- سند: السند هي الثياب البيضاء. نفسه، ص245.
56- تفصيلة: التفصيلة هي الثوب الجديد المفصل لمن يلبسه غالي الثمن. نفسه، ص359.
57- وقاية: شبه طاقية، تكون على رأس المرأة تحت الخمار تقيه من الدهن وعرق الرأس. رينهارتدوزي: المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، مجلة اللسان العربي، الرباط، مج 10، ج 3، ص 206. رجب عبد الجواد إبراهيم: ص 533.
58- ابن القلوذي: ورقة 102 و.
59- نفسه، ورقة 71 ظ.

14- نفسه، ص 57.
15- نفسه، ص 314.
16- نفسه، ص 266.
17- نفسه، ص 111.
18- نفسه، ص، ص 214، 254، 282.
19- نفسه، ص 264.
20- أبو جعفر أحمد بن إبراهيم الغرناطي: كناب صلة الصلة، تح: شريف أبو العلا العدوي، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص 422.
21- الغبريني: ص 290.
22- نفسه، ص- ص 283- 287.
23- نفسه، ص 79.
24- نفسه، ص 119.
25- نفسه، ص 268.
26- نفسه، ص- ص 65- 66.
27- نفسه، ص- ص 266- 267.
28- نفسه، ص- ص 266- 267.
29- نفسه، ص 214.
30- الونشريسي: المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 1981، ج 5، ص 114. التنبكتي أحمد بابا(ت 1036 هـ/1626 م): كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، ضب وتع: أبو يحي عبد الله الكندري، ط 1، دار ابن حزم، بيروت، 2002، ص 138.
31- التنبكتي: ص 59. التنبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تق: عبد الحميد عبد الله الهرامة، ط1، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، 1989، ص 78. الونشريسي: المعيار المعرب، ج 2، ص 382. ابن مريم أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد الشريف المليتي المديوني التلمساني (ت 1014 هـ/ 1605 م): البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، مر: محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، ص 51. الحفناوي: ج 2، ص 69.
32- الغبريني: ص 263. الحفناوي: ج 2، ص 198.
33- الغبريني: ص 58.
34- نفسه، ص- ص 289- 290.
35- نفسه، ص- ص 41- 4.
36- نفسه، ص 115.
37- نفسه، 119.
38- عبد اللطيف أحمد الشيخ: التوثيق لدى فقهاء المذهب المالكي بإفريقية والأندلس من الفتح الإسلامي إلى القرن الرابع عشر الهجري، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، دبي، 2004، ج 2، ص 623.

والاستعانة بكتب التوثيق في الدراسات العمرانية والاقتصادية والاجتماعية واجبة على الباحثين في هذا المجال لما تحتويه من معلومات لا يمكن أن يجدها الدارس في مصادر أخرى، كما أنني ومن خلال بعض نماذج الوثائق تعرفت على بعض الملامح لبجاية من خلال استعراض مدرسة التوثيق البجائية والتي تميزت بمشيختها وعلاقاتها العلمية المتعددة بما سمح لها أن تكون من أهم مدارس التوثيق بالغرب الإسلامي.

**-الهوامش:**

1- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد (ت 914 هـ/1508م): المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بآداب الموثق وأحكام الوثائق، نشر عبد الوهاب الدوكالي، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 71.

2- أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله (ت 714هـ/1314م): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح: عادل نويهض، ط 2، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1979،ص 111.

3- في هذا الموضوع نشر مقالان الأول بالجزائر والثاني بالعراق وهما: عبد السلام همال: خطة الوثائق السلطانية في الأندلس، مجلة عصور، ع 16، جامعة وهران، جوان 2010، ص- ص 211- 241. أنسام غضبان عبود: صاحب الوثائق وعمله في الأندلس، مجلة دراسات تاريخية، ع 13، جامعة البصرة، ديسمبر، 2012، ص- ص 227-276.

4- عبد السلام همال: علم الوثائق بالأندلس من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة، أطروحة دكتوراة العلوم في التاريخ الإسلامي الوسيط، جامعة الجزائر، 2010، ص 10.

5- الحفناوي أبو القاسم محمد بن أبي القاسم الديسي: تعريف الخلف برجال السلف، مطبعة بيير فونتانة الشرقية، الجزائر، 1906، ج 2،، ص 327.

6- الغبريني: ص 82.

7- أبو محمد عبد الحق بن ربيع بن أحمد بن عمر الأنصاري البجائي (ت 675 هـ/1276 م) فقيه مالكي صوفي من أهل بجاية أصله من أبدة بالأندلس. الغبريني: ص 67. ابن القنفذ أبو العباس أحمد بن حسن بن علي بن الخطيب القسنطيني: الوفيات، تح: عادل نويهض، ط 4، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1983، ص 333.

8- الغبريني: ص 60.

9- أبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى بن علوان الفقيه الكاتب الأديب المنشئ، له نظم في الفرائض وهو من أصحاب الغبريني. الغبريني: ص 314.

10- نفسه، ص 314.

11-الحفناوي: ج 2، ص 198.

12- نفسه، ج 2، ص 326.

13- الغبريني: ص 252.

المعروف بداخل بجاية وبحومة كذا ... منها مستوقده وقدره والاستقاء من بيره الكائنة بالخربة اللصيقة به ومرفقه المعد لوضع زبله وغير ذلك ... "[84].

أما المرافق التي كانت قائمة على ساحل مدينة بجاية فمنها دار صناعة الأنشاص وهذه وثيقة تنص عليها: "حضر بمحضر شهيديه فلان الفلاني وباع من فلان الفلاني جميع القارب المعروف به بساحل مدينة بجاية المحروسة أو جميع القارب المعروفة به الآن بمرسى بجاية أو جميع القارب المعروفة به الذي هو الآن بدار صناعة الأنشاص داخل بجاية المحروسة ... "[85]، والنص إضافة إلى أنه يسمي بعض المرافق فهو يعطي شرحا ومفهوما لها، فدار صناعة الأنشاص كما هو واضح في النص مكان على شاطئ البحر مخصص لصناعة السفن، كما أنه في مدينة بجاية تقوم صناعة القصارة بشاطئ البحر من شرقي بجاية المحروسة ... "[86].

هذه بعض المرافق العامة أما المرافق الرسمية فمثالها بيت المال ببجاية، وهو مرفق رسمي تابع للدولة قائم بداخل مدينة بجاية وهذه وثيقة تذكر ذلك: "وثيقة بيع أنقاض قائمة على ساحة لبيت المال بشرط الهدم: باع فلان من فلان جميع الأنقاض المعروفة به القائمة بساحة لبيت المال وهي أنقاض الدار الكائنة بداخل مدينة كذا منها... "[87].

كل المرافق السابقة كانت داخل مدينة بجاية، وهناك مرافق أخرى خارجها وتحفل كتب الوثائق بذكرها، "كسوق الدواب الذي هو خارج باب عزوز "[88]، " قاعة القرمديين خارج باب عزوز "[89] و"قاعة الجيارو حومة الفخارين بربض بجاية المحروسة "[90].

**-الخاتمة:**

بناء على المقتطفات السابق ذكرها والتي اخترتها من كتب الوثائق تمكنت من كشف بعض مرافق مدينة بجاية سواء التي بالداخل أو التي بالخارج، كما تمكنت من التعريف بخصوصية البيت البجائي وهي معلومات أحسبها أكثر زخما في كتب الوثائق من الكتب الأخرى وعليه تصبح عملية الاطلاع

العقد ما يليق به وعلى أن يكون المنصب المياه المطرية التي تجتمع بالسقف المذكور على ما ولاه من الشارع الذي سلك عليه من شرقي الدار المذكورة ويكون الطلوع إلى هذا العلو المذكور على أدراج يوضع أولها بكذا من ساحة الدار المذكورة وينتهي آخرها إلى جهة كذا من العلو المذكور وعلى أن يفتح المبتاع المذكور في جداره الموالي لدار البايع المذكور طاقتين اثنين يتطلع الناظر من كل واحد منهما جالسا على ساحة الدار المذكورة وعلى أن له المدخل والمخرج من باب الدار المذكورة بيعا صحيحا تاما منبرما سالما ... إن الذراع التي وقع التبايع بينهما بها على الذراع الموصوفة لقيس الأمتعة وغيرها بسماط بجاية المحروسة ... "[81]، وتظهر أهمية هذه الوثيقة في تركيزها على ثلاث نقاط أساسية هي: التهوية، النظافة والمدخل، أما التهوية فهي وجوب فتح المبتاع للهواء طاقتين، أما النظافة فتتضح من خلال إلزامية تمييل الشاري للهواء لسقف بيته باتجاه الشارع حتى لا ينساب المنصب من المياه المطرية التي تجتمع بالسقف المذكور على ساحة الدار السفلية وكذلك وفي إطار النظافة وجب بناء مرحاض في الدار العلوية مع ربط قناته وفق التفاصيل التي نصت عليها الوثيقة السابقة، أما المدخل للبيتين العلوي والسفلي فهو واحد وهو ما يشبه شكل العمارات حاليا.

- **مرافق مدينة بجاية.**

لا نهدف في هذا العنصر إلى الإلمام بكل المرافق في مدينة بجاية لكن نحاول إبراز دور كتب الوثائق في الكشف عن المرافق العامة في بجاية والغرب الإسلامي ككل، من المرافق العامة التي كانت ببجاية والتي وردت في كتب الوثائق هي الأسواق ومنها: "سوق العطارين، سوق الزياتين وعتبة السمارين التي تقام بها صناعة الحدادة "[82].

ومن المرافق الأخرى نجد الطواحين، الأفران والحمامات مثلما تورده هذه النماذج من الوثائق: "... الطاحون المعروف بفلان الفلاني الكائن بحومة كذا من داخل بجاية..."[83] ؛ " كوشة الطبخ المعروفة لفلان الفلاني الكائنة بداخل بجاية المحروسة بحومة كذا بجميع حقوقها وعامة منافعها ... جميع الحمام

على قدر البيوت المذكورة ملصقة بالركن الشرقي الكذا من البيوت الثلاثة التي بساحة الموضع المذكور فيه ويكون ارتفاع كل درجة كذا واتساعها كذا ويجعل بونا صغيرا بموضع كذا من ساحة الموضع المذكور طوله كذا وعرضه كذا وارتفاعه كذا ليكون جهاز الموضع المذكور ويجعل فيه كرسيا على أن يكون بناء ذلك كله وجميع ما يحتاج إليه البناء المذكور من جيار وجص وآجر ورمل وخشب وغير ذلك على مالك الموضع المذكور فيه وعلى الأجر المذكور ما يحتاج إليه في بنائه من ماعون البناء التي جرت العادة بكونه على البناء [ ]وما يفتقر إليه من الرجال الخدمة الذين يقومون معه في ذلك على أن يكون شروعه في البناء المذكور فيه في غدوة يوم السبت الآتي قريبا لتاريخه بإجارة مبلغها كذا وكذا مؤجلة عليه إلى انقضاء شهر كذا توافقا على ذلك كله ... "[80].

إن هذا الوصف الدقيق لتخطيط البيت البجائي يبين أن مساكن العامة كانت تتكون غالبا من طابقين؛ بالطابق الأول ثلاثة غرف وبالطابق العلوي غرفتان بينهما درج يصعد به إلى الأعلى حتى أنه يمكن لمن يملك هواء فوق داره أن يبيعه لغيره لغرض البناء عليه، وهو ما يعرف في الوثائق ببيع الهواء مثلما تبينه الوثيقة التالية: "وثيقة بيع هواء: باع فلان من فلان ارتفاع عشرة أذرع من سقف بيته القبلي الكائن بداره من حومة كذا من داخل مدينة بجاية المحروسة على أن يبني المبتاع المذكور فوق هذا السقف المذكور علوا مشتملا على بيتين اثنين أحدهما في الجهة الجنوبية منه والآخر في الجهة القبلية طول كل بيت كذا ذراعا وعرضه كذا كذا ذراعا ومستخدمه في جهة كذا طولها كذا وعرضها كذا ومرحاضها في ناحية كذا وينصب قناته به [ حلاقم] ملصقة بالبناء مع حائطه كذا إلى أن تصل القناة المذكورة بالأرض فتنصرف من هنالك بجحران بباطن الأرض مارة إلى جهة الشارع الذي بقرب الدار المذكورة فيه على أن يكون بناء العلو المذكور بالجص والآجر وغلظ جدرانه غلظ آجرة ويكون سقفه بالقرمد وخشبه مربعة أو مقصبة غلظ كل خشبة منها كذا بين كل خشبتين منها وخشبتين ذارع واحد يجعل فيه عند

تدل عليه هذه الوثيقة: "التزم الرايس ... أن يحمل في قاربه المعروف بساحل بجاية المحروسة ... قنطارا من الحديد ... حتى يوصله إن شاء الله آمنا بسلعته إلى مرسى حضرة تونس المحروسة ... "[76].

**- العمران البجائي.**

كتب الوثائق غنية بالمعلومات العمرانية فهي منثورة في عقودها وتبقى بحاجة لمن يجمعها وينظمها حتى يتمكن من رسم صورة مكتملة للعمران البجائي ويمكن لهذه الوثائق أن تقدم صورة مفصلة عن تخطيط البيت في بجاية وكذلك تخطيط المدينة من خلال بعض الوثائق.

**-تخطيط البيت البجائي.**

شكلت دور العائلات الثرية في الحواضر معالم عمرانية حيث "تميزت بشساعتها واحتوائها على حجرات كبيرة وقاعة مفصصة تحيط بها الحدائق وتتخللها ممرات بها نافورات وبرك"[77] أما مساكن العامة فكانت بسيطة تتكون من "غرف مبنية من الحجارة والطين والخوص والشجر"[78]، أما المواد اللازمة للبناء التي كانت متداولة ببجاية فهي " ... الحجر والجيار والتراب و... القرمد والخشب ... والرمل ... والجص ... "[79].

من أهم الوثائق التي تعرف بتخطيط البيت البجائي وثيقة لبيت من العامة مختزنة بمخطوط وثائق البجائي ذات أهمية كبيرة لكونها تكشف عن مساكن العامة في تلك الفترة نصها: "وثيقة استئجار بناء على ِبناء معلوم: استأجر فلان فلانا ليبني له ... في موضعه الكائن بحومة كذا من داخل بجاية المحروسة ثلاثة بيوت بساحة موضعه المذكور فيه أحدها شرقي الباب والآخر غربية والثالث جوفي الباب طول كل بيت منها ستة وعشرون شبرا بالوسط وعرضه أحد عشر شبرا وارتفاعه إلى أخشاب سقفه ثمانية عشر شبرا ويبني له على البيت القبلي والشرقي منها مقدمة بإخراج إلى جهة ساحة الموضع المذكور بذراع واحد بالوسط وتشتمل المقدمة المذكورة على بيتين متقابلين أحدهما قبلي والآخر جوفي بابه وقدر كل بيت منها طولا وارتفاعا

مشهورة بسلع معينة كسوق خميس تبكلات وسوق تاكرارت من عمل بجاية المشهورين بالشعير ومعادن الحديد المشهورة عند بني حسن وبني عبد الجبار"[69] و" قمح بني حسن أو بني وجهاز "[70] وهناك أسواق للحيوانات تباع فيها "الماشية وذات الحافر كالحصان والرمكة[71] والفرس والبغل والحمار والأتان"[72]، وكل هذه المبادلات التجارية تكون بالعملة الذهبية أو الفضية المتداولة ومن العملات التي نصت عليها الوثائق الدينار الفضي: "باع فلان من فلان مملوكه الجناوي المسمى بكذا بيعا صحيحا تاما بثمن جملته خمسون دينارا فضة سكة جديدة ... "[73].

كانت هناك مبادلات تجارية بين بجاية وقسنطينة والجزائر وهذه أحد الوثائق التي تثبت ذلك: "وثيقة اكتراء دابة معينة للحمل: اكترى فلان من فلان بغله الأخضر القارح الحسن ... ببردعته ولجامه ليحمل عليه قنطارا واحدا ... من بجاية المحروسة وبوزنها إلى بلد قسنطينة المحروسة ... التزم فلان الفلاني توصيل فلان الفلاني راكبا على فرس ذكر... دلول بسرجه ولجامه من مدينة بجاية المحروسة إلى بلد الجزاير المحوط..."[74].

ومن أهم الوثائق التي تثبت وجود تبادل تجاري مهم بين بجاية وقسنطينة وثيقة شراكة بين تاجرين واحد في بجاية والآخر في قسنطينة هذا نصها: " وثيقة شركة بمال في بلدين: ... فلان وفلان توافقا على الشركة... بينهما في مائتي دينار... كلها من الدنانير الفضة الجديدة ... ليحاولا التجر فيما رأياه من أنواع التجر بمدينة بجاية وقسنطينة المحروستين على أن يكون فلان عنهما هو المتولي ذلك ببجاية المحروسة وفلان المذكور هو المتولي لذلك بنفسه بقسنطينة المحروسة يجهز كل واحد منهما لصاحبه ما يظهر له ويرى فيه النفع من أنواع المتاجر ولكل واحد منهما من الربح بعد قبض رأس ماله ... بقدر ما للآخر... "[75]

أما التجارة الخارجية لبجاية فكانت تتم عن طريق البحر مع الحواضر التي لها سواحل فكانت بجاية تصدر الحديد إلى تونس عن طريق البحر مثلما

هذه الوثيقة: "التزم الرايس ... أن يحمل في قاربه المعروف بساحل بجاية المحروسة ... قنطارا من الحديد... حتى يوصله إن شاء الله آمنا بسلعته إلى مرسى حضرة تونس المحروسة ... "[66].

**- المنتوجات الفلاحية:**

وثائق البجائي غنية بإشارات مهمة عن المنتوجات الفلاحية ببجاية وهي أصناف عدة منها: الحبوب والخضار والفواكه ومنتوجات غابية وحيوانية، لم يكتف بذكرها فقط بل وصفها بشكل مفصل على عادة كتب الوثائق لتمييز المنتوجات عن بعضها وهو ما جعل هذه المعلومات مهمة جدا فعسل النحل ببجاية يختلف نوعه باختلاف مكانه وزمانه، فحسب النوع: خفيف وخاثر وحسب الزمن فهو يكون تبعا للفصول الثلاثة التي يجنى فيها: عسل الربيع، عسل الصيف أو عسل الخريف والزيت كذلك أنواع: زيت عذب صافي وزيت القيعان وهو الذي يبقى في قيعان الأواني حين عصر الزيت وهو دون الزيت العذب الصافي الذي يستخدم للأكل والاستصباغ وحتى الحبوب من القمح والشعير التي تستهلك على مستوى واسع هي أيضا أنواع ولها أسماء منها القمح الحمرا والبيضاء والشعير الأبيض ومنها "قمح بني حسن وقمح بني وجهاز "[67] و "شعير سوق خميس تبكلات أو تاكرارت من عمل بجاية المحروسة "[68] كما أن حبوب القمح والشعير تنقى بعد حصادها لتكون من النوع الفاخر.

ووصف البجائي قمح وشعير بجاية بأنه ممتلئ وأن عسلها يجنى في ثلاثة مرات في العام واستشهاده بأكثر من عشر أنواع من الخضار ومحاصيل أخرى دلالة على التنوع والغناء الفلاحي في بجاية.

**- التجارة:**

تقوم التجارة في أماكن التجمعات فتعقد الأسواق ويجتمع فيها الناس للتبادل التجاري، كما أن هناك أسواقا تعقد بأحد أيام الأسبوع وهي مشهورة بذلك "كسوق الجمعة بقبيلة بني عبد الجبار وأسواق أخرى

هذه المعلومات حول أواني البيت في بجاية تعتبر مميزة وأكثر تفصيلا من غيرها خاصة ما تعلق بالكلل والأردية، فالوثائق لا تكتفي بذكر لونها فقط بل تتعدى إلى الوصف الدقيق وذكر تسمية النوع مثل القاطع والمقطوع والاشطرنجي وهو يعني أن كتب الوثائق تعتبر مصادر مهمة جدا في الكشف عن هذه الجوانب الخفية والدقيقة في التاريخ الاجتماعي.

وفي وثيقة حبس تظهر فئة أخرى هي فئة الفقراء: " ... الدار المحبسة على الفقراء ببجاية من داخل بجاية المحروسة ... الكائنة بحومة كذا ... "[61].

**- الحرف:**

• الدلال: هو "الذي يعرف القادمين من التجار بموضع السلع في البلد ويعرف أرباب السلع بالتجار، فيسمى الدلال لأنه يدل المشتري على البائع والبائع على المشتري"[62] ينادي على الأمتعة لبيعها في الأسواق والقيساريات، كما قد يشترك اثنان في الدلالة كما تورده الوثيقة التالية: " وثيقة اشتراك الدلالين: ... فلان وفلان توافقا على ... بيع الأمتعة والنداء عليها بقيسارية بجاية المحروسة ... "[63].

• النساج: كتب الوثائق تقدم تفصيلا بخصوص النساجين، فهم قد يستأجرون لمدة طويلة من طرف أصحاب المصانع مقابل أجر شهري مثلما تبينه الوثيقة التالية: "استأجر فلان فلان ليعمل له في نسج المقاطع ... بالقطن أو بالكتان من عدة عشر بيوت... أو في نسج العمائم أو نسج المناديل[64] لمغطاة بالحرير أو المغلقةبغير حاشية من عدة كذا كذا بيت من الغزل البلدي أو البراني ..."[65] هذه الوثيقة توحي أن هذا المستأجر قد يكون صاحب معمل للنسيج في مدينة بجاية يجمع مادته الأولية من بيوت بجاية ويقوم النساجون الذين يستأجرهم بتحويلها لمنسوجات بفضل حرفتهمو مقابل أجر شهري.

• الرايس: من المهن البحرية التي احترفها سكان المدن الساحلية مثل بجاية فكان للرياس قوارب يستخدمونها في نقل الأفراد والسلع مثلما تدل عليه

أن أب الزوجة يساهم في جهاز ابنته فجهاز العروس في بجاية يكون على عاتق العريس ومثال ذلك " وثيقة بإيراد شوار: أورد فلان الفلاني بيت ابنته فلانة مع بعلها فلان الفلاني أسبابا تتفسر بأثمانها فمن ذلك كله[50] واحدة من حرير من عمل الأندلس ... من النوع المسمى حجلة[51] بثمن مبلغه كذا ومن ذلك فردتا خلخال من ذهب ... ومن ذلك خيط واحد من الجوهر بكراسي ستة من الذهب وحجر نفلينفي واسطته ... ومن ذلك كله ثالثة من حرير من عمل تونس ثمنها كذا ومن ذلك ستارةمن حرير نجد وحدها ... "[52]؛ ويبدو جليا أن عرائس بجاية كن يفضلن أن يكون جهازهن من أفضل أنواع اللباس والحلي فكن يميزن بين أنواع الحرير ويخترن أفضله فالوثيقة تذكر أنهن يخترن الحرير الأندلسي والتونسي والنجدي فهن يفضلنه عن غيره، كما أنه يمكن أن يستفاد من هذه الوثيقة في جانب العلاقات التجارية بين بجاية والمدن الأخرى فقد كانت تصلها السلع من مختلف المناطق حتى البعيدة نوعا ما مثل نجد.

**- أواني البيت:**

من الأواني التي كان البيت البجائي يحتوي عليها: "طست كبير، مهراس، سطل، خابية وخزانة"[53] إضافة إلى أفرشة وستائر؛ وهذه وثيقة تصف أفرشة أحد البيوت البجائية وهي:

" ... كلةحرير أندلسية بأربعة أمخاد قاعتها بنفسجي ورداء[54] اشطرنجي بحواشي حمر ومخدات عشر أربعة منها سند[55] وأربع منها من الثوب الأندلسي واثنان من البلدي وتفصيلة[56] حرير أندلسي العمل مخيطة من المسمى قاطع ومقطوع في الكبير ووقاية[57] حرير بيضاء ... بحواشي زرق زنتها كذا ... "[58]، وقد استغل أهل بجاية الجلود كأفرشة بعد معالجتها ففي أحد الوثائق لم يخلف أحد الموتى شيئا يورثه سوى "هيادر ثلاثة"[59] إضافة إلى أفرشة أخرى هي الحنابل، وهذا أحد العامة " ... في ماله وذمته كذا دينارا ذهبا وجبت عليه من ثمن حنبلا صفته كذا ابتاعه وقبضه بعد أن وزنه وقلبه ورضيه وأحاط علما بجملة أذرعه طولا وعرضا ..."[60].

صاحبه مجهول وينتمي زمنيا إلى نهاية القرن الثامن وبداية التاسع الهجريين، جمع فيه مؤلفه مجموعة من الوثائق لموثقين من مدينة بجاية[48].

هذا النوع الجديد من المصادر الفقهية هي مصادر مهمة من تراث بجاية تزيد من مكانتها ضمن الرصيد الحضاري للعالم الإسلامي ككل وللمغرب الأوسط بخاصة مثل: "وثائق البجائي" و"صناعة التوثيق البجائي" وهذا العنوان الأخير يكرس يثبت تميز التوثيق البجائي عن غيره من المدارس الأخرى ووعليه يمكن القول إن بجاية حاضرة مهمة في المغرب الأوسط تمكنت من إنتاج العديد من الرجال والمؤلفات المهمة في علم التوثيق مما سمح لها أن تبرز كقطب علمي مهم في فرع من فروع الفقه التطبيقي وهو علم التوثيق.

**5- ملامح المجتمع البجائي من خلال كتب الوثائق.**

**- الزواج.**

يعد الزواج من أهم المواضيع التي اهتمت بها كتب الوثائق من أجل حفظ الحقوق خاصة بالنسبة للزوجة سواء كانت مسلمة أو ذمية وكثيرا ما تحفظ الوثائق معلومات مختلفة في هذا الجانب ومنها وثيقة تثبت زواج البجائيين المسلمين من نساء ذميات: "وثيقة نكاح مسلم كتابية: تزوج على بركة الله وحسن عونه فلان الفلاني فلانة النصرانية أو اليهودية ابنة فلان من تجار النصارى بمدينة بجاية المحروسة أو ابنة فلان اليهودية أو الذمي الثيب المالكة أمر نفسها ..."[49].

ومن المواضيع الأخرى التي تختزنها كتب الوثائق هي المستلزمات التي تدخل في جهاز العروس ورغم أن الذي تولى شراء هذه المستلزمات هو والد العروس من نقد مهرها إلا أنه يشهد على نفسه بذكر صفة اللباس والحلي وثمن جميع ما ابتاعه بالتفصيل إبراء لذمته وبحضور شاهدين وهو ما يبين درجة تمسك المجتمع البجائي بتعاليم الدين الإسلامي في الزواج فلا يرضى أب الزوجة أن يأخذ من مهرها شيء من جهة، ومن جهة أخرى فالوثيقة لا تبين

بالمفتين والحكام" للبرزلي أبو القاسم احمد البلوي القيرواني (ت 841 هـ/1437 م).

المخطوط ينتمي إلى مدينة بجاية ويتضح ذلك من عنوان المخطوط "وثائق البجائي" المنسوب للبجائي والذي بدوره هو منسوب إلى مدينة بجاية، ويتأكد ذلك من خلال تكرار ذكر بجاية في متن المخطوط لمرات عديدة، وهو مخطوط غير مكتمل، ينتمي مكانيا إلى مدينة بجاية وزمنيا ربما إلى نهاية القرن التاسع الهجري، وعليه يجب البحث عن نسخ أخرى له حتى تسهل عملية تحقيقه ودراسته ويصبح جاهزا للنشر والخروج من دائرة المفقود حتى يأخذ مكانته ضمن مؤلفات المذهب المالكي وضمن مصادر المغرب الأوسط.

**- مغني الموثقين عن كتب الأقدمين لمؤلف مجهول من بجاية.**

ذكر عبد اللطيف الشيخ هذا العنوان اعتمادا على نسخة من السفر الثاني لهذا المخطوط وقف عليها بدار الكتب الوطنية التونسية تحمل الرقم (6545)، قدم وصفا عنها فصاحبها مجهول ويبدو من خلال المخطوط أنه قد رحل إلى تونس واستقر بها وعقد الوثائق بين الناس فهو من أهل القرن التاسع الهجري؛ ويتضح ذلك في آخر السفر الثاني حيث يقول: "تم السفر الثاني من مغني الموثقين عن كتب الأقدمين وبتمامه تم جميع الديوان والحمد لله بمحروسة بجاية أعادها الله للإسلام عشية يوم الاثنين من شهر رمضان عام ثمانية عشر وثمان مائة"[47].

**- صناعة التوثيق ببجاية.**

توجد نسخة بالمكتبة الوطنية التونسية بعنوان قريب جدا من هذا العنوان هو " صناعة التوثيق عند أهل بجاية" رقمها (A-MSS- 22651) وهذا المخطوط يعد من أهم مصادر تاريخ مدينة بجاية إذ يمثل الموروث الحمادي والموحدي وإلى جانب الزياني، أما جغرافيا فهو ينتمي إلى مدينة بجاية،

فمدرسة بجاية مكتملة الأركان متميزة بموثقيها وبمؤلفاتها في علم التوثيق.

**4- أهم مؤلفات التوثيق البجائية.**

**- وثائق البجائي: لابن القلوذي أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ق 9 هـ/15 م)**[45].

هو مصدر مخطوط من خزانة التوثيق البجائية مؤلف مهم غني بمادة مصدرية نوعية ولا يزال لحد الآن مخطوطا مجهولا، أهميته تظهر من خلال أحد الطرر الموجودة على حواشي المخطوط والتي نصها: "قال الونشريسي عقب كلام البجائي ... "[46] وهذه الطرة تفيد بأن هذا المخطوط كان معروفا عند الونشريسي صاحب "المعيار المعرب"، كما أنها توضح أنه قد انتشر خارج موطنه الأصلي بجاية على الأقل إلى تلمسان وفاس اللتان أقاما بهما الونشريسي؛ كما أن قلة مؤلفات التوثيق البجائية المعروفة لحد الآن تجعل من وثائق البجائي هذا على قدر كبير من الأهمية في دراسة علم التوثيق البجائي وتطور الفقه المالكي ودراسة المجتمع البجائي وكذلك تبرز أهميته من خلال المصادر التي اعتمد عليها، فهي مصادر نوعية متخصصة في الوثائق تزيد من قيمة المخطوط، فقد اعتمد على مؤلفين متخصصين في التوثيق منهم: ابن بطال (ت 302هـ/914 م)، ابن أبي زمنين، ابن العطار أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ابن الهندي أبو عمرو بن سعيد بن إبراهيم الهمذاني، ابن مغيث الطليطلي، ابن الطلاع أبو عبد الله محمد بن فرج (ت 497 هـ/1103 م)، ابن فتحون خلف بن محمد(ت 505 هـ/1111 م)، المتيطي أبو الحسن علي بن عبد الله بن إبراهيم، ابن سلمون أبو القاسم بن علي بن عبد الله بن سلمون الكناني الغرناطي(ت 767 هـ/1365 م) وآخرون، زيادة على أمهات الكتب الفقهية المالكية منها: "المدونة" لسحنون بن سعيد التنوخي، القاسمية كتاب " الاستغناء في آداب القضاة والحكام" لخلف بن مسلمة بن عبد الغفور (ت 440 هـ/1048 م)، "الأسدية" "الإعلام بنوازل الأحكام" لابن سهل أبو الأصبغ عيسى القرطبي "جامع مسائل الأحكام مما نزل من القضايا

لهذه المناصب في القاهرة يبين مستواه الفقهي والتوثيقي الذي حصله من تكوينه في المدرسة البجائية.

من الموثقين البجائيين الذين رحلوا إلى المشرق أيضا العدل المرضي أبو علي عمر بن أحمد العمري البجائي الذي " قرأ على جملة من مشايخ المشرق "[42] ثم رجع إلى بجاية فكان من عدولها المرضيين وانتصب للتدريس بها وهذا النموذج يبين أن الرحلة العلمية للمشرق ذات اتجاهين: الأول يكون فيه الموثق قد تفقه ببجاية ويظهر بعد ذلك في المشرق أما الثاني فيحصل ويستفيد بالمشرق ثم يظهر ببجاية، هناك من الموثقين من يكون أصله من بجاية لكنه يقرأ بالمشرقو يظهر به مثل أبي عبد الله جمال الدين محمد بن سليمان بن يوسف الزواوي الذي كان من "أهل زواوة ثم قدم الإسكندرية فتفقه بها وبرع، عالج الشروط وناب في الحكم بالقاهرة وحكم بالشرقية ثم تولى قضاء دمشق ومات بها"[43].

من خلال هذه العلاقات المتعددة لموثقيبجاية يبدو جليا قدرة بجاية على الاستقطاب والتأثير سواء استقطاب الموثقين أو استقرارهم ببجاية بسبب توفر العوامل المساعدة على ذلك مثل: توفر الظروف العلمية المساعدة كالمساجد وحرية التدريس فيها وانتقال الموروث الفقهي والتوثيقي من القلعة - التي أخذت مكان القيروان قبل ذلك - إلى بجايةزيادة على قرب بجاية من ساحل البحر مما سهل ربط علاقات مع الأندلس والمشرق عن طريق البحر وكذا قربها جغرافيا من إفريقية وعليه فهذه العلاقات المتعددة ساهمت في إبراز مكانة مدرسة التوثيق البجائية.

مما سبق ذكره نقول إن: "بجاية المحروسة دار علم وحضرة فقه ودين"[44]، ذات مدرسة في التوثيق مكتملة الأطراف؛ بل هي مدرسة متميزة حتى أن الغبريني عقد مفاضلة بين التوثيق البجائي والأندلسي وغلب الكفة للمدرسة البجائية وشيخ موثقيها وفخرها عبد الحق بن ربيع وقال: لو رآه أبو الحسن الجزيري صاحب " المقصد المحمود في تلخيص العقود" لأتبعه وأخذ منه.

اعتمدت وثائقه كنماذج تتبع في الأندلس وأعجب بها علماء الأندلس ومنهم ابن سبعين.

**- موثقو بجاية وموثقو المغربين الأدنى والأقصى.**

تعددت حواضر المغرب الإسلامي التي ربطت معها بجاية علاقات علمية، فقد كانت بجاية من مراكز هذا المحور الحضاري بين المغربين الأدنى والأقصى خاصة القيروان وفاس؛ وبجاية كانت مشتملة في السلطة الحفصية وهي أحد أهم أقاليمها وعليه كان التوثيق بها كتوثيق افريقية ورغم هذه الوحدة السياسية وتشابه الخطط إلا أن التوثيق تنبع خصوصيته من المجتمع وأعرافه ومجتمع بجاية يختلف عن مجتمع إفريقية مما يجعل المحلي في التوثيق قوي خاصة في مجتمع ثري ومتنوع مثل المجتمع البجائي، لكن من جهة أخرى فابن الطير أبو محمد عبد الله بن أحمد بن عبد السلام الذي كان "من أهل إفريقية، درس بتونس ورحل إلى بجاية فأقرأ بها وتخطط بالعدالة ثم رقي لقضائها "[40]فقد أقرأ بتونس وبجاية ومؤكد أنه نقل معه معرفته بالوثائق التي حازها في إفريقية ووظفها أثناء قضائه ببجاية وهذا ما يبين أنه لا يوجد – تقريبا – اختلاف بين ما هو متعارف عليه بخصوص الوثائق في إفريقية وما عليه العمل بخصوص التوثيق في بجاية، كما أن افتقاد التبادل العلمي للموثقين بين بجاية والمغرب الأقصى يجعلني أقول أن العلاقة العلمية بين بجاية وإفريقية هي أمتن منها بالنسبة للمغرب الأقصى وربما يرجع ذلك لأسباب سياسية أو لتفضيل أهل المغرب لتلمسان وقربها عن بجاية بالنسبة لهم، أو أن السبب في قوة العلاقة بين بجاية وإفريقية هو الامتداد السياسي للدولة الحفصية الذي جمع بين بجاية وإفريقية في مجال واحد مما سهل التفاعل والتبادل العلمي بما فيه التوثيق.

**- موثقو بجاية والمشرق**

كان أبو الروح المنكلاتي الزواوي الذي صنف في الوثائق - وقبل ذلك كان قد تفقه ببجاية ثم رحل للقاهرة - هو الرابط بين بجاية والقاهرة؛ حيث "تولى نيابة القضاء ثم تولى التدريس بزاوية المالكية بالقاهرة "[41]، فتوليه

بلنسية واستقر ببجاية فاستعمل فقهه في خدمة المجتمع البجائي "فأخذ عنه واستفيد منه حتى أنه تخطط بالعدالة فكانت صفة له"[34].

كذلك الموثق "أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين بن سعيد بن إبراهيم الأزدي الاشبيلي الذي رحل إلى بجاية وتخيرها وطنا فجلس بها للوثيقة والشهادة وبها اشتهر حاله وظهرت تصانيفه"[35].

كما نجد العدل الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله الخزرجي الشاطبي (ت 691 هـ/1292 م) الذي "تولى قضاء بجاية "[36] وكتب العقود بها، فهو موثق أندلسي أصله من شاطبة وظهر ببجاية.

ومن الموثقين الأندلسيين الذين عرفوا ببجاية العدل أبو العباس أحمد بن الحسن بن الغماز الأنصاري "من أهل بلنسية رحل لبجاية واستوطنها "[37]، فكانت رحلته بعد تحصيله العلمي بالأندلس وبرز فيما بعد بالتوثيق في بجاية[38].

ومن الموثقين البجائيين الذين تعلموا بالأندلس وساهموا في تكوين علاقة علمية بين بجاية والأندلس أبو زكرياء يحي بن عباس بن أحمد بن أيوب القيسي من "عدول الشهود البجائيين الذين أخذ الناس عنه رحل من قسنطينة إلى الأندلس سنة (608 هـ/1211م) وأخذ عن أبي الخطاب بن واجب (ت 614 هـ/1217م) وأبي الحسن (أبو عبد الله) محمد بن سعيد بن زرقون الاشبيلي وغيرهما"[39] وهذه النماذج التي تفقهت بالأندلس وظهرت ببجاية في مجال التوثيق تثبت وجود علاقة بين التوثيق البجائي والأندلسي.

إذا فعلاقة التوثيق البجائي بالأندلسي كانت قائمة أساسا على الرحلة العلمية فالعديد من الموثقين البجائيين رحلوا إلى الأندلس وتعلموا بها ثم عادوا إلى بجاية وظهروا بها، كما أن هناك من الموثقين الأندلسيين من فضلوا الاستقرار ببجاية فظهروا بها واشتهروا وتخططوا بالعدالة وكما سبق وأن عرضت فمن أبرز موثقي المغرب الأوسط عبد الحق بن ربيع الذي

القاضي الموثق أبو العباس أحمد بن عيسى البطيوي التلمسانيالذي لقب "بفقيه بجاية "[31].

**- موثقو بجاية وموثقو الأندلس**

ساهمت الرحلة العلمية في تبادل المعارف ونقل الخبرات خاصة من الأندلس إلى بجاية نتيجة لثراء الكتابات الأندلسية في علم التوثيق مثل وثائق ابن العطار وابن الهندي والمتيطية وابن فتوح وابن عات...، فقد تأثر البجائيون بهذه الكتابات واعتمدوها في صناعة التوثيق البجائي؛ من بين العلاقات البجائية الأندلسية في التوثيق علاقة التكوين والدراسة، فكثير من البجائيين رحلوا إلى الأندلس وسمعوا من مشايخها مثل: "أبي القاسم بن السطاح العدل الفقيه البجائي الذي رحل إلى اشبيلية وقرأ بها ولقي أبا الحسن (أبو عبد الله) محمد بن سعيد بن زرقون الاشبيلي وأبا بكر بن طلحة وأبا عبد الله محمد بن علي بن طرفة وأجاز له أبو الحسن بن زرقون، ولما عاد إلى بجاية تخطط بالعدالة "[32]؛ فابن السطاح قرأ باشبيلية وبرز ببجاية وتخطط بها بالعدالة مما يجعله نتاجا للمدرسة الأندلسية ولجهود مشايخها وموثقيها.

من أهم الإشارات الدالة على علاقة التوثيق البجائي بالأندلسي مقارنة الغبريني بين وثائق عبد الحق بن ربيع ووثائق الجزيري، حتى أن ابن سبعين أعجب بوثائق عبد الحق بن ربيع ونقل عنه نماذج من وثائقه في كتبه[33]ورغم الأصول الأندلسية لعبد الحق بن ربيع إلا أنه ولد وقرأ ببجاية وبرز فيها وتأثيره في التوثيق الأندلسي يظهر من خلال نقل ابن سبعين عنه وشهادة الغبريني فيه، فقد أثنى على هذا الموثق البجائي علم من أعلام الأندلس وهو يبين الصدى الذي بلغه عبد الحق بن ربيع ووثائقه ومن ورائهما التوثيق البجائي.

من الموثقين الأندلسيين الذين اختاروا بجاية مستقرا لهم أبو عثمان سعيد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن الأنصاري البلنسي، الذي ارتحل من

تتلمذ على ابن السطاح ولعلم الفرائض أهمية كبيرة في كتابة الوثائق ويعد من العلوم المساعدة لعلم التوثيق خاصة في وثائق الميراث (الفرائض).

14.أبو عبد الله محمد بن صالح الخطيب (ت 699 هـ/1299 م): "تخطط بالعدالة وجلس للوثيقة روى وأجاز وأقرأ واستنفع به خلق كثير له علم بالقراءات والنحو واللغة والأدب وورواية الحديث كما له شعر حسن، فكان أحدا ممن كثرت عليه القراءة والرواية ببجاية "[28]، شهرته بالوثيقة كتابة وباللغة والنحو تدريسا يجعله ممن يقصد لدراسة الوثائق وإحكامها لغويا.

15.ابن صمغان أبو عبد الله محمد بن عمر القلعي (ت ق 7 هـ/13 م): " الشيخ المشهور له علم بالوثيقة والفقه والحديث كان يقرأ عليه الموطأ قراءة تفهم، له مجلس دراسة بعلو سقيفة داره يجتمع فيها إليه خواص الطلبة"[29]، هو فقيه محيط بالمذهب المالكي مدرس مدقق في المذهب اختص بتدريس الموطأ، كما أن علمه بالوثائق واشتهاره بالفقه والتدريس يدعم اعتباره ممن درس التوثيق ببجاية.

قد رصدنا من موثقي بجاية لحد الآن خمس عشرة (15) من أشهر موثقيها ومن خلال تراجمهم يتضح بصورة جلية تعدد علاقاتهم وتنوعها من خلالها تكون قد تنوعت علاقات مدرسة التوثيق البجائي خاصة عن طريق رحلة طلب العلم أو عن طريق الاستقرار ببجاية وتدريس التوثيق أو امتهانه.

**3- التوثيق البجائي تأثيرا وتأثرا.**

**- موثقو بجاية وموثقو تلمسان.**

أحسن من مثل هذه العلاقة سعيد بن محمد بن محمد بن محمد العقباني "القاضي المشهور وذائع الصيت الذي استقر لفترة ببجاية وتولى قضاء جماعتها وفي الوقت نفسه كان يكتب الوثائق للناس"[30] وهو بذلك ينقل خبرته بالوثائق التي حصلها أثناء تكوينه العلمي بتلمسان ويضعها في خدمة أهل بجاية ثم عاد بعد ذلك إلى تلمسان وتولى القضاء بها، فهو نموذج واضح عن وجود بعض العلاقات العلمية بين بجاية وتلمسان في ميدان التوثيق، ومن الموثقين التلمسانيين الذين عملوا ببجاية أيضا الفقيه

وألينهم جانبا للطلبة، قيد أصحابه عنه الكثير ومما قيدوه خطب في النكاح وكان هو رأس الجماع الأندلسية وعنده مجتمعهم"[22]، "أخذ عنه أبو عبد الله بن صالح الخطيب"[23] و"أبو العباس بن الغماز ولقيه بمالقة أبو إسحاق إبراهيم بن أبي بكر التلمساني وأجاز له"[24] وهؤلاء الثلاثة ممن قرؤوا عليه مشهورون بالتوثيق وهو ما يعني أن ابن محرز كان يدرس كتب التوثيق من جملة الكتب الفقهية التي كان يدرسها.

11.أبو علي عمر بن أحمد العمري(ت بعد 660 هـ/1262 م): "الشيخ الفقيه الأصولي من أهل بجاية انتصب للتدريس بها وكان يقرأ عليه الفقه والأصلان، أخذ عنه عبد الحق بن ربيع"[25]و اشتهاره بالفقه والتدريس وأخذ الموثق الشهير عبد الحق بن ربيع عنه يدل على أنه ممن درس التوثيق باعتباره من فروع الفقه وممن ترك بصمته في مشيخته لأنه ساهم في تكوين الشخصية العلمية لشيخ موثقي بجاية عبد الحق بن ربيع.

12.أبو محمد عبد الله بن محمد بن عمر القلعي (ق 7 هـ/13 م): "الشيخ الفقيه كان شاهدا بالديوان درس بالجامع الأعظم ببجاية، حافظ للخلاف العالي والمذهب المالكي كان يبدأ مجلسه بالرقائق ثم بالفقه والحديث، أخذ عنه أبو عبد الله محمد بن صالح الخطيب"[26] ممارسته للشهادة وتدريسه للفقه وحفظه للخلاف في المذهب المالكي يثبت قدرته على تدريس الوثائق ولعلها من جملة العلوم التي درسها بجامع بجاية وما يؤكد ذلك هو تتلمذ الموثق المشهور أبو عبد الله محمد بن صالح الخطيب عليه.

13.أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبي بكر المنصور القلعي (ت 670 هـ/1271 م): "عالم بأحكام الوثائق والشروط هو موثق الوقت كان له علم بالفقه والفرائض علما وعملا وله علم بالحساب سبق فيه الأوائل لم يكن في بجاية في وقته أحد يريد قراءة الفرائض إلا قرأها عليه كان يقصد من البلاد البعيدة لقراءة هذا العلم عليه، وله مجلس يقرئ فيه أحيانا " التهذيب في اختصار المدونة " لابن القاسم"[27] وهو نتاج مدرسة التوثيق البجائية فقد

6. أبو محمد عبد الحق الاشبيلي (ت 581 هـ/1185 م): "استقر ببجاية وجلس للوثيقة والشهادة ولي قضاءها، قرأ عليه كل من: ابن حبوس، أبو عبد الله محمد بن صمغان، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الوغليسي"[18]، هو من الفقهاء الذين ساهموا في إثراء المدرسة البجائية بشكل فعال حتى أن من تتلمذوا عليه صاروا من أبرز الموثقين.

7. أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن السطاح(ت 629 هـ/1231 م): "الشيخ الفقيه النحوي والأستاذ اللغوي اشتغل بالعدالة والتدريس في بجاية بعد (623 هـ/1226 م) إلى أن توفي من تلاميذه أبو عبد الله القلعي "[19]، على قدر اشتهاره بالتوثيق اشتهر كذلك بالتدريس وساهم في تكوين مدرسة التوثيق البجائية.

8. أبو زكرياء يحي بن عباس بن أحمد بن أيوب القيسي (حيا 649 هـ/1251 م): "من عدول الشهود أخذ الناس عنه ببجاية، ألف برنامجا ضمن فيه شيوخه وما سمعه عنهم كتب إلى "ابن الزبير" صاحب "صلة الصلة" بإجازة عامة عما رواه سنة (649 هـ/1251 م) "[20]، وأخذ الناس عنه يفيد بأنه ممن جلس للتدريس واشتهاره بالعدالة يؤكد معرفته بالتوثيق، فربما أخذ عنه علم التوثيق بمجلسه ببجاية، زيادة على الإجازات الكتابية التي كان يكتبها لمن هو خارج بجاية.

9. أبو عثمان سعيد بن علي بن محمد بن زاهر البلنسي (ت 654 هـ/1256 م): "أقرأ ببجاية وروى وأسمع وأخذ عنه واستفيد منه، قرأ عليه الفقيه أبو عبد الله بن صالح الخطيب وأبو العباس بن خضر وهما سند أبي العباس الغبريني إليه"[21] وهو من نخبة مدرسي بجاية تخرج عليه الموثقون والقضاة مثل الموثق أبو عبد الله بن صالح الخطيب والقاضي أبو العباس الغبريني الذي ينتسب إليه ويعده من ضمن سلسلة مشيخته.

10.ابن محرز أبو بكر محمد بن محمد (ت 655 هـ/1257 م): " كانت تقرأ عليه الكتب الفقهية وكتب الحديث واللغة والأدب، لا يخلو له وقت عن الاشتغال بالعلم إما رواية، تدريسا، مقابلة أو عرضا للمسائل، كان أحسن الناس خلقا

1. أبو عبد الله الخشني محمد بن محمد بن الحسين ( ت نحو 640 هـ/1242 م): " كان في صناعة التوثيق إماما، عليه اعتماد أكثر أهل بجاية في وقته، وكذلك كان اعتماد الفقيه القاضي أبي عبد الله الأصولي عليه، هو فقيه جليل مدرك مقدم مشارك مشاور مجيد من أهل بجاية "[13].

2. عبد الحق بن ربيع (ت 675 هـ/1276 م): "شيخ شيوخ الموثقين في بجاية وروح بلده ومصره وواسطة نظام أهل زمانه وعصره، يقول فيه ابن المطرف بن عميرة إنه انفرد في الكتابة الشرعية عن الناس كان يحمل فنونا من العلم: الفقه، الأصلان، المنطق، التصوف الكتابتان الشرعية والأدبية الفرائض والحساب، كان هو القاضي على القضاة بالحقيقة لأن مرجع أمرهم إنما كان إليه فاق في وثائقه من سبقه، أهل العلم يثنون عليه ويقولون لم يكن في المغرب الأوسط مثله اشتهر بعلمه ومكانته حتى بلغ ذكره للسلطان الحفصي المستنصر"[14]، فهو من أهم موثقي بجاية والمغرب الأوسط على الإطلاق.

3. ابن علوان أبو محمد عبد الله بن محمد بن موسى البجائي (ق 7 هـ/13 م): " شيخ كتاب الكتابة الشرعية في وقته فقيه، كاتب،أديب له فقه جيد جمع بين الكتابة الشرعية والأدبية له نظم في الفرائض وعلى وثائقه العمل في الدولة الحفصية"[15].

4. أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المنصور القلعي: "موثق الوقت"[16]من شيوخ التوثيق في بجاية.

5. ابن عتيق الغساني " لقي المشيخة التي لقيها الفقيه أبو محمد عبد الحق بن ربيع فكانت قراءتهما معا"[17]، يشترك ابن عتيق مع عبد الحق بن ربيع في المشيخة وهما يتربعان على عرش مشيخة التوثيق ببجاية وتكوينهما كان جزء منه بالجزائر وربما هذا ما يطرح التساؤل عن أثر التوثيق الجزائري بالبجائي.

من موثقي بجاية من اكتفوا بكتابة الوثائق ومنهم من مارسوا التدريس وفي الغالب سيكونون قد درسوا التوثيق ومنهم:

الحفصي بتولي القضاء في قسنطينة فاعتذر"[8]؛ فعرض القضاء مرتين عليه يبين كفاءة هذا الموثق وأهليته لمنصب القضاء.

وظائف أخرى للموثقين ومن الموثقين من قدموا لإمامة الناس في الصلاة أو الخطابة في المساجد مثل الموثق "أبو محمد بن علوان[9] (ق 7 هـ/13 م) الذي ناب في صلاة الفريضة بالجامع الأعظم ببجاية"[10] ولم يكن ذلك إلا نظير أخلاقهم ومكانتهم في المجتمع البجائي وعليه وجب في الموثق أن يكون صاحب أخلاق حميدة مقبولا في مجتمعه مفضلا، وكثيرا ما عرف الموثقون بالأخلاق المرضية.

شهرة الموثق ومن جهة أخرى فالموثق إذا اشتهر اشتهرت وثائقه وعرف خطه فهو دليل على عدالته فلو كان عكس ذلك لانفض الناس من حوله ومن حول وثائقه ومن هنا جاز للشاهد على الخط أن يشهد بعدالة كاتبه بتكرار خطه عليه وإن لم يعاينه يكتب ومن موثقي بجاية الذين اشتهرت خطوطهم " أبو القاسم عبد الرحمن بن السطاح (ت629هـ/1231 م) الذي كان بارع الخط حسن الضبط"[11]، كما أن " أبا المعالي محسن بن أبي بكر بن شعبان (ق 7 هـ/13 م) يعتبر من العدول المعول عليهم ببجاية وله خط بارع في نهاية الإتقان والجودة"[12] فالخطوط أنواع ومن أتقنها حسنت وثيقته، ومن اشتهر خطه فهو دليل على كثرة تداول وثائقه بين الناس واشتهار عدالته.

**2-أشهر موثقي بجاية.**

تميزت بجاية بكونها حاضرة علمية مهمة بعلمائها وفقهائها زارها الكثير من كبار العلماء وطلبة العلم فنسجت بذلك علاقات علمية متعددة باعتبارها محطة مهمة في طريق طلاب العلم بين المشرق والأندلس ومن أشهر فقهاء التوثيق بها:

الهلالية فالرصيد المعرفي والعلمي الذي حصلته بجاية أكثره من نتاج القلعة وكتب التراجم غنية بالقامات العلمية التي اشتهرت ببجاية وأصلها قلعة بني حماد، ومنهم الغبرينيالذي خص بجاية بكتابه وركز على القرن السابع الهجري من العلماء ومنهم القضاة والموثقين وهو ما يجعل معلوماته دقيقة في موضوع فقه التوثيق لأنه كان قد مارس القضاة في بجاية فهو على دراية بهذه المنظومة التوثيقية والقضائية.

التوثيق السلطاني أما ولاة بجاية وعمالها فيختلفون عن عامتها في كتابة عقودهم وتميزوا عن العامة بخطة الوثائق السلطانية[3] التي تختلف عن خطة الوثائق العادية أو الخاصة بالعامة فالولاة وأسرهم وأيضا حاشية السلطان والولاة يختصون بموثق يكتب لهم وثائقهم وعادة ما يكون قاضي الحضرة حسب ما يستفاد من كتب التراجم، إضافة لهذه المهمة السلطانية فقاضي الحضرةهو المشرف على الخطةفي بجاية ويكون موثقا "يختاره الحاكم عادة من أهل الدراية والعلم والعدالة"[4].

علاقة الموثق بالقاضي والموثق والقاضي كثيرا ما تتقاطع مهامهم غير أن القاضي هو من يشرف على الموثق والموثق غالبا ما يساعد القاضي في سجلاته ووثائقه؛ فالقضاة يستعينون بالموثقين في مسك سجلاتهم لما يتمتع به الموثقون من إحكام وضبط ففي بجاية كان القضاة يعتمدون في تسجيلاتهم عل الموثق أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الوغليسي (ق 7 هـ/13 م)[5]، وكثيرا ما ناب الموثق "أبو عبد الله بن صالح الخطيب عن القاضي في بعض وظائفه خاصة قضاء الأنكحة"[6] ونيابة القاضي في الأنكحة تحتاج إلى إعمال نظر للتأكد من شروط صحة العقد وهو ما يبين قدرة الموثقين على مثل هذه الوظائف الفقهية التي تحتاج إلى إمكانات نظرية وتطبيقية اكتسبوها من ممارستهم للتوثيق وهذه النيابات هي بمثابة ترقيات للموثقين ومرحلة لإثبات الأهلية لتولي منصب القاضي،فكثيرا ما يعرض الولاة والسلاطين على بعض الموثقين مناصب لتولي القضاء "فعبد الحق بن ربيع[7]عرض عليه قضاء بجاية فامتنع منه ووصل إليه كتاب السلطان

التي هي على قدر كبير من الأهمية في الكشف عن ملامح مجتمع العصر الوسيط، وكمثال على ذلك اخترنا بجاية للتعريف بمنظومتها في مجال علم التوثيق ولتكون أنموذجا في استقاء المعلومات المجتمعية من خلال مصادر كتب التوثيق وقبل ذلك وجب التعريف بفقه الوثائق وبمنظمة هذا العلم في حاضرة بجاية موضوع البحث.

**1-صناعة التوثيق وعلاقتها بالقضاء**

علم الوثائق أو علم الشروط كلاهما واحد لكنه اختلاف في التسمية فعلم الوثائق اعتمدت عند المالكي علم الشروط عند الحنفية، ولغويا فالتوثيق بمعنى الإحكام والشد والربط، أما اصطلاحا فعلم التوثيق أو فقه الوثائق هو علم يعتمد على الفقه في عقد وصياغة المعاملات اليومية بين الناس بغرض حفظ حقوقهم وفق الضوابط الشرعية وهو "علم شريف يلجأ إليه الملوك والفقهاء وأهل الحرف والسوقة والسواد كلهم يمشون إليه ويتحاكمون بين يديه ويرضون بقوله ويرجعون إلى فعله"[1] فهو يحفظ حقوق كل منهممستندا على المذهب المتبع في البلاد وتسمى صنعة التوثيق أيضا بالكتابة الشرعية تفريقا لها عن الكتابة الأدبية التي يختص بها من يكتبون الرسائل بمختلف أنواعها ما بين الرعية أو من الرعية لولاة الأمر أو بين ولاة الأمر على اختلاف مراتبهم وهي في ذلك تحتاج لمن يتقن الأدب دون الفقه على خلاف الكتابة الشرعيةالتي اعتمدها أساسا على الفقه الضابط للأمور الشرعية وبه سميت الكتابة الشرعية. والتوثيق هو خطة قد نجدها باسم خطة العدالة أو خطة الشهادة أو خطة التوثيق والغبريني[2] الذي ترجم لعلماء بجاية يسميها خطة العدالة ويقول في كثير من تراجمه: فلان " ..... تخطط بالعدالة " .

وفي بجاية عرف هذا العلم مع دخول المذهب المالكي وانتشاره في كل المغرب الأوسط باعتبار فقه الوثائق فرع من فروع الفقه المالكي الذي ساد أغلب الغرب الإسلامي، فصارتبجاية من أهم حواضر الفقه المالكي في كل الغرب الإسلامي خاصة في فترات ازدهارها إضافة لدعم قلعة بني حماد لها باعتبارها تنتمي لإقليمها من جهة ووريثتها من جهة أخرى خاصة بعد الهجرة

# أهمية فقه الوثائق في دراسة تاريخ المجتمع البجائي

أة/ ملاك لمين*

-الملخص:

يعتبر فقه التوثيق من أحدث المباحث في الدراسات التاريخية الفقهية ولأن الفقه في جانبه التطبيقي يبحث عن حلول لمشاكل المجتمع فهو بالتأكيد يحتوي مادة مصدرية جديدة مهمة في دراسة نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية وباعتبار كتب التوثيق تحتوي على وثائق ونماذج لعقود كانت متداولة في الفترة الوسيطة فهي تحفظ لنا مشاهد من الممارسات اليومية التي شهدها مجتمع بجاية.

**Abstract:**

The jurisprudence of the documentation of the newest detective in historical studies of jurisprudence and because of jurisprudence in his Applied looking for solutions to the problems of society is certainly contain a new a source important in the study of aspects of social and economic life and as written documentation containing the documents and models for decades were in circulation in the period intermediate It kept us scenes of everyday practices witnessed by the community Bejaia.

-مقدمة:

يعتبر فقه التوثيق من أحدث المباحث في الدراسات التاريخية الفقهية ولأن الفقه في جانبه التطبيقي يبحث عن حلول لمشاكل المجتمع فهو بالتأكيد يحتوي مادة مصدرية جديدة مهمة في دراسة نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية وباعتبار كتب التوثيق تحتوي على وثائق ونماذج لعقود كانت متداولة في الفترة الوسيطة فهي تحفظ لنا مشاهد من الممارسات اليومية تمكننا من بناء نظرة أشمل وأكثر دقة عن المجتمع المدروس، والوثائق من هذا الجانب هي تكمل ما عرف عند دارسي التاريخ الوسيط بالنوازل الفقهية

* أستاذة باحثة مختصة في التاريخ الإسلامي - جامعة عبد الحميد مهري قسنطينة-2 - الجزائر.

40 - ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، ص 382.
41- نفسه، ص 383.
42- الونشريسي، المصدر السابق، ج 12، ص 55.
43- إبراهيم القادري بوتشيش: "الحب في العلاقات الزوجية بالعائلة المغربية خلال العصر الوسيط، مساهمة في دراسة تاريخ المشاعر الإنسانية (5-6هـ/11-12م)"، مجلة عصور الجديدة، ع5، 2012، ص 36.
44- الونشريسي، المصدر السابق، ج 12، ص55.
45- نفسه، ج12، ص 56./ كمال أبو مصطفى، جوانب من حضارة الغرب الإسلامي من خلال نوازل الونشريسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2007، ص 03.
46- مليكة حميدي، المرأة المغربية في عهد المرابطين (448- هـ541/ 1056-1146م)، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر، الجزائر، 2011، ص 232.
47- الونشريسي، المصدر السابق، ج 5، ص 189.
48- ابن الحاج، المصدر السابق، ج 2، ص 55.
49- الونشريسي، المصدر السابق، ج 2، ص 489.
50- نفسه، ج 2، ص 489.
51- ابن الحاج، المصدر السابق، ج 2، ص 172-173.
52- نبيلة عبد الشكور، المرجع السابق، ص 290.
53- نفسه، ص 291-292.
54 - المعتقد هو: القوة المحركة وراء كل الأفعال الاجتماعية التي يأتيها الفرد منفردا بنفسه أو مجتمعا مع الناس، ويمكننا بذلك أن نعثر على معتقد أو تصور معين يكمن وراء كل جزئية م جزئيات السلوك في أي ميدان من ميادين النشاط الإنساني، ينظر: حسن عيسى، موسوعة الحضارات (تاريخ، لغات، أعلام، قيم حضارية، مدن، عادات وتقاليد)، دار انهضة العربية، بيروت، 1998، ص 257
55- ابن الحاج، المصدر السابق، ج2، ص 104.
56 - الونشريسي، المصدر السابق، ج6، ص419 / العقباني، المصدر السابق، ص 71.
57- العقباني، المصدر السابق، ص 71
58- عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني (دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية، ثقافية)، موفم للنشر، الجزائر، 2007، ج1، ص 297.
59 - ابن مرزوق، المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق: سلوى الزاهري، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ط 1، 2008، ص 168-169./ عبد العزيز فيلالي، المرجع نفسه، ج 1، ص 298.
60- الونشريسي، المصدر السابق، ج 2، ص 487-488 .
61- برنشفيك، تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، نقله إلى العربية: حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1988، ج2، ص 178.
62 – أحمد التيجاني، تحفة العروس ومتعة النفوس، تحقيق: جليل العطية، رياض الريس للكتب والنشر، قبرص، ط1، 1992، ص 219.
63- النفزاوي، الروض العاطر في نزهة الخاطر، مكتبة المنار، تونس، د.تا، ص 14.
64 - الونشريسي، المصدر السابق، ج 2، ص 488.

14 - يحي بن عمر، أحكام السوق،، محمود علي المكي، د.ن، دتا، ص 64-65.
15 – الونشريسي، المصدر نفسه، ج 2، ص 505.
16 - صوفية السحيري بن حتيرة، الجسد والمجتمع دراسة أنثروبولوجية لبعض الاعتقادات والتصورات حول الجسد، دار محمد علي للنشر، تونس، ط1، 2008، ص 106.
17- العقباني، المصدر السابق، ص 72.
18 - نبيلة حساني، إسهام المرأة المغربية في حضارة المغرب الإسلامي منذ النصف الثاني منتصف ق6 إلى نهاية ق9هـ (12-15م)، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، 2007-2008م.
19 – الونشريسي، المصدر نفسه، ج2، ص 500.
20 - نفسه، ج2، ص 500.
21 - نبيلة حساني، المرجع نفسه، ص 260-261.
22- ابن تيمية، زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط1، 1992، ص 09-10.
23- الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تصحيح وتعليق، إبراهيم شبوح، مكتبة الخانجي، مصر، 1978، ج3، ص 212 /ج4، ص 226-203
24 - يحي هويدي، تاريخ فلسفة الإسلام في القارة الإفريقية الشمال الإفريقي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1966، ج1، ص 359.
25 - M. Gaudry, la femme Chaouia de l'Aurès, librairie orientaliste Paul Geuthner, Alger, 1928, p 119.
26- سورة الإسراء، الآية: 32.
27- الونشريسي، المصدر السابق، ج4، ص 308./ المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق: مختار حساني، مراجعة: مالك كوشوش الزواوي، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2009، ج2، ص 43.
28- الونشريسي، المصدر السابق، ج4، ص 332 .
29- بزراوي نور الهدى: "الإحباط لدى الفتاة ضحية زنا المحارم"، مجلة الإنسان والمجتمع، ع 04، تلمسان، 2012، ص 114.
30- مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، دار الحضارة للنشر، الجزائر، ط1، 2007، ج3، ص 209.
31- نفسه، ص 210.
32 - الونشريسي، المعيار، ج 11، ص 193.
33 - نفسه، ج 11، ص 193.
34 - العقباني، المصدر السابق، ص 73-74.
35- مختار حساني، المرجع نفسه، ج3، ص 207.
36 - الونشريسي، المصدر السابق، ج4، ص476.
37 - نفسه، ج 2، ص 214-215.
38 - نفسه، ج 2، ص 145-146.
39 - نفسه، ج 9، ص557.

يولد لدى المجتمع شعورا عاما بإمكانية تقبلها وإضفاء الشرعية عليها. وهذا ما تعكسه الفتاوى الواردة في كتاب "المعيار" للونشريسي كان بمثابة نافذة حاولنا من خلالها رصد بعض العادات التي نهى عنها الفقهاء في مجتمع المغرب الاسلامي وما لمسناه من تشدد واستنكار من قبلهم. ورأوا أن مثل هذا النوع من البدع كما أطلقوه عليها يمكن أن تسقط المرأة في الشرك والجهل والخضوع المذل لها، ورغم ذلك تبنت تلك العادات والممارسات ورأت فيها متنفسا لها.

**-الهوامش:**

1- عبد الرحمن بشير، المرأة في نوازل البرزلي، عن طريق عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، قسم المغرب العربي تاريخ دكتور عبد الرحمن بشير. نشرت في/2015/03/16، www.dar-ein.com

2- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، د.ت، مج3، ص 2154

3- القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922، ج10، ص 460-461.

4- ابن عبدون (و ابن عبد الرؤوف والجرسيفي)، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة، اعتنى بتحقيقه: ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1955، ص 20.

5 - الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، دار الغرب الإسلامي، بيروت،1981،، ج2، ص 505.

6- نفسه،، ج 2، ص 505.

7- نفسه، ج 5، ص 199

8 - العقباني، تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر، تحقيق: علي الشنوفي، extrait du bulletin d'études orientales de l'institut français de Damas, tomes XIX, 1967 ، ص 80.

9 – الونشريسي، المصدر نفسه، ج 5، ص 199.

10- ابن الحاج، المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد الذي انتحلت وبيان شناعتها، مكتبة التراث، القاهرة، د.تا، ج 2، ص 78.

11- عمر إبراهيم توفيق، صورة المجتمع الأندلسي في القرن الخامس للهجرة (سياسيا واجتماعيا وثقافيا)، دار غيداء للنشر، عمان، ط1، 2009، ص 114.

12 – الونشريسي، المصدر نفسه، ج 2، ص 505.

13 - عبد الملك بن حبيب، أدب النساء الموسوم بكتاب الغاية والنهاية، حققه وقدم له ووضع فهارسه: عبد المجيد تركي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1992، ص 232.

الخارجي أكثر منه في الجانب الروحي والأخلاقي. غير أنه لا يمكن أن نجزم بأن الرجل في المغرب الإسلامي انصب اهتمامه على الشكل الخارجي للمرأة بل تراوحت المواصفات الجمالية لدى الرجل بين الجمال الروحي والفيزيولوجي وجمال التواصل.

وقدم "أحمد التيجاني" تصنيفا لأنواع النساء حسب سمنتهن فيقول:" إذا كانت المرأة ضخمة في نعمة على اعتدال فهي ربحلة فإذا زاد ضخمها ولم تقبح فهي سبخلة فإذا دخلت في حد ما يكره فهي مقاضة وضناك. فإذا أفرط ضخمها مع استرخاء لحمها فهي عفضاج"[62].

أما النفزاوي فقد أعطى وصفا دقيقا للجمال المثالي للمرأة عند الرجال قائلا: "هي المرأة الكاملة الفد العريضة اللحم...، غليضة العنق عريضة الصدر واقفة النهود ممتلئ صدرها لحما معقدة البطن...، غليضة الأفخاذ والأوراك ذات أرداف ثقال وعكان وخصر جيد...، عريضة الأكتاف واسعة المحزم كبيرة الردف إن أقبلت فتنت وإن أرادت قتلت"[63].

وقد بلغ ببعض النساء السمنة لدرجة أنهن صرن غير قادرات على الوقوف للصلاة وعاجزات عن غسل نجاستهن، وهذا ما ذكره الونشريسي: "و منها ما يفعله النساء من أسباب التسمن مستهجن قبيح ...، لأن بعضهن لا يقدرن على القيام في الصلاة وكذلك الركوع في الغالب فتصلي جالسة وهي التي ادخلت ذلك على نفسها...، أما الصلاة بالنجاسة فلأن بعضهن يعمل (كذا) لكثرة السمن والشحم حتى إن يدها تقصر عن الوصول لغسل ما على المحل من النجاسة لأجل ما تسببت فيه من عبول البدن"[64]. ورغم ما يبدو من نهي أو كراهية في هذه المسألة إلا أنه كان معمولا بها في المغرب الأوسط، فكانت المرأة الجميلة هي المرأة البدينة.

**-الخاتمة:**

وخلاصة القول أن هذا النوع من العادات احتل حيزا كبيرا في المغرب الأوسط وذلك من خلال كثرة ممارساتها وتكرارها ومن ثم الاعتياد عليها ما

وانتشرت عادة العويل ولطم الخدود، لدى نساء المغرب الأوسط بكثرة، وهو ما يشير إليه العقباني بقوله: "كثرت المجاهرة به بإعلان النساء بالنوح ولطم الخدود وشق الجيوب والدعاء بالويل والثبور، واجتماعهن لذلك قد يكون في مقر يستأذن بعضهن بعضا إليه يسمينه بالزحف، وربما ضربن عليه بالدف والمزمر، ويخرجن في الأزقة عاليات الأصوات باديات الوجوه"[57]، وقد ذمت هذه الظاهرة الغريبة عن الإسلام ونهى عنها الفقهاء، أما نساء الأعيان والوجهاء وأسر الفقهاء والصلحاء كن لا يندبن ولا يلطمن خدودهن[58].

فعندما أحس أبي عبد الله محمد الثاني بن مرزوق بدنو أجله طلب حضور بعض الأقارب والأصدقاء، فتجمعوا حوله يقرأون القرآن وهو يسمع إليهم، فعرفت النساء من خلال ذلك دنو أجل الشيخ فبدأن بالبكاء، وهو الأمر الذي يجعل كبير العائلة في هذه اللحظة ينتقل بين الحاضرين من القراء والأصدقاء وبين النساء ليهون عليهن، ويسكت المقرئون عن تلاوة القرآن بعد حدوث الوفاة، ويقومون بتغطيته ثم يتقدمون لتعزية الأقارب ومواساتهم في فقيدهم بتقبيل رؤوسهم، كان ابن مرزوق قد لام زوجته عشية الوفاة عندما لا حظ يديها ورجليها مخضبتين بالحناء المنقوشة[59]، مما يدل على ظاهرة الحزن عند أهل تلمسان.

**د- الإفطار في شهر رمضان:**

حرصت المرأة في المغرب الاسلامي على أن تكون بدينة، وذلك لارتباط البدانة بالجمال، فكانت عمليات التسمين رائجة ومستعملة بصفة مكثفة، وهو ما يشير إليه الونشريسي أن بعض النساء كن يفطرن من غير عذر شرعي وهذا خوفا من انخفاض وزن أجسادهن وذهاب جمالهن خاصة إذا كانت على أبواب الزواج ما يبين أن الرجل كان يفضل المرأة البدينة على الرشيقة ما أدى البعض إلى الإفطار مضطرات تحت ضغط أسرهن[60].

فكلما كانت جسيمة أي سمينة، كلما اعتبرها الناس جميلة ورغبوا فيها[61]. ونفهم من هذا أن معيار الجمال لدى معظم الرجال يتجسد لديهم في الشكل

كله مخالف للسنة المطهرة."[49]. ويضيف الونشريسي إلى ما ابتدعته بعض النساء بقوله: "أن المرأة منهن إذا كانت حائضا لا تكتال القمح ولا غيره من الطعام ولا تحضر موضعه لأجل حيضها. وهذا ما فعل اليهود"[50]، ويبين هذا تأثير نساء اليهود من أهل الذمة في عادات المغرب الإسلامي، خاصة وأن تلك النسوة من اليهود اشتهرن بمهن كالدلالات ما يسمح لهن بدخول البيوت والاحتكاك بالنساء المحليات.

وكانت النساء تؤمن بالطيرة والفأل والعين، حيث ورث المجتمع مثل هذه المعتقدات عن مجتمعات سابقة له، من ذلك نذكر ما تقوم به العروس بتخضيب شعرها بالحناء عند ذهابها إلى الحمام الذي يسبق الدخلة، كما تصحب معها أفخر الثياب وأنفس الحلي فتلبسه حين فراغها من الغسل كما تخضب يديها ورجليها قبل أن تزف إلى زوجها[51]. وعرف في "منطقة الغرب أن يوضع هودج العروسة فوق ظهر فحل الخيل ليكون أول مولود للعروسين ذكر"[52]. وكانت النساء تتفاءل خيرا بنيران عاشوراء كتسخين الماء عليها والاغتسال به للحفاظ على جمال بشرتهن، أما بخصوص التطير فكانت غاية في الانتشار حيث اعتقدت بعض النساء أن من عطست خلال عملية تسدية القماش يعتقد أن ذلك يؤدي إلى موت الصانعة أو أحد أقاربها، وكذلك عند إفراغ السدي لحياكة قماش ما، يتطير من انتماء العاملتين المتناوبتين على ذلك إلى نفس العائلة أو الأسرة يعتقد أن ذلك يجلب لها التعاسة[53].

وارتبط الاعتقاد أيضا بالعين خاصة العين الحسود، والعين يراد بها عادة "الإصابة أو المكروه الذي يحدث لشخص بدون سبب يذكر، والنساء يؤمنون أشد الإيمان بهذا المعتقد[54] (العين) في العادة لا تصيب إلا غنيا أو جميلا أو جديدا أو نحو ذلك... لذلك يردد خمسة في عين الحاسد أو العدو..."[55].

**ج- النواح ولطم الخدود على الميت:**

اعتادت بعض النساء عندما يصيبهن جلل في أحد الأقارب على البكاء حيث كن يكثرن العويل والنواح حول الجنازة، وتصدرن صيحات مزعجة[56]،

والبعض، ومعالجة عقدة -ربط العروس- بالسحر"[43]، فاختلف العلماء حول ما إذا كان ذلك يعد سحرا أم لا، وتضاربت آراؤهم، بين الإجازة والمنع والتحريم، وإن كان بعضهم اعتبروا أن الادعاء بحل تلك العقدة مجرد خدعة يتوخى فاعلوها" خدع الضعفاء لأكل أموالهم"[44].

وكان مألوفا في أوساط المغرب الاسلامي انتشار مثل هذه التصرفات من طرف المشتغلين بضرب الخط أو كتابة المحة للنساء، حيث كانت تلجأ بعض من هؤلاء النسوة إليهم لتقتني حرزا للزوج إذا أعرض عنها ويقبل عليها أو تحاول مصالحته إذا خاصمها، وذلك توثيقا للروابط الزوجية[45]، وهذا النوع من السلوك يرجع أساسا إلى الاعتقاد بالشعوذة وتأثيرها على بعض النساء لاسيما في البوادي والأرياف، وما هذه الظاهرة بغريبة على مجتمعنا فنراها مستمرة ليومنا هذا وتحدث كثيرا عندما يفتر الوازع الديني[46]. ويشير الونشريسي إلى بعض الممارسات التي تثير الاستغراب "كالنظر في عظام أكتاف المواشي، والغبار، والرصاص الذائب وضرب الخط"[47].

واعتقاد النساء في السحر وكتابة التمائم كان منتشرا بكثرة، حيث يشير ابن الحاج إلى أن النساء "كن يجدن السبيل إلى إطعام الرجل ما يخزن من السحر وغيره لنقصان عقلهن"[48]، وكان تبرير النساء في هذه الممارسات هو حل مشاكلهن الزوجية ورغبتهن في الشفاء من الأمراض والعلل.

**أ- الاعتقاد في الطيرة والفأل:**

هناك عادات غير مرغوب فيها عرفت طريقها إلى المغرب الاسلامي كأن تحجم المرأة عن كنس بيتها عندما يسافر زوجها لأن في اعتقادهم ذلك نذير شؤم، وكان هذا الاعتقاد سائدا حتى لدى الرجال أيضا، فقد أشار الونشريسي إلى ما يفعله بعضهم من "أنهم كانوا يتركون تنظيف البيت وكنسه عقب سفر من سافر من أهله ويتشاءمون بفعل ذلك بعد خروجه ويقولون أن ذلك فعل لا يرجع المسافر. وكذلك ما يفعلونه حين خروجهم معه إلى توديعه فيؤذنون مرتين أو ثلاثا ويزعمون أن ذلك يرده إليهم. وهذا

الإطار يذكر الونشريسي نازلة تخص اغتصاب رجل لامرأة بعد هروبه بها وإبقائها عنده مدة من الزمن مستمتعا بها على سبيل الإكراه ثم ردها إلى أهلها[36]، ونلمس من هذه النازلة أن الخاطف ربما يكون من ذوي الجاه كشيخ أو زعيم لقبيلة، لهذا لم يتقدم أهل الفتاة بشكوى ضده وسكوتهم عما حدث لها، كما يذكر نازلة عن اليتيمة التي خاف عليها قومها الفساد أن يهرب بها بعض المفسدين طوعا منها أو كرها، لكونهم ببلاد السايب بضعف أحكام القضاة بها، فاتفق رأيهم على تزويجها بغير ولي على وجه التعد[37].

ولم يقتصر الاعتداء على البنات من قبل عامة الناس فقط، وإنما شملت شيوخ القبائل أيضا وهو ما يشير إليه المازوني في هذه الفتوى التي سئل عنها "أبو الفضل العقباني" "عن امرأة مهملة فرت بنفسها زمن المسغبة لوطن غير وطنها فوقعت عند شيخ من أشياخ الموضع فحبسها وتزوجها بغير ولي على وجه التعد"[38]. ويعرف الحفيد العقباني أسلوب الاعتداءات بقوله: "الهارب على عادة البادية، العادة المشهورة عندهم أنهم يأتون في صورة الحرابة شاهري السلاح"[39]، وبذلك لا يمكن لأي أحد الوقوف أمامهم.

**3- عادات تتعلق بالمعتقد:**

**أ-السحر والشعوذة:**

يعرف ابن خلدون السحر أنه علم بكيفية استعداد النفس البشرية للتأثير في عالم العناصر إما بغير معين أو بمعين من الأمور السماوية، فالأول هو السحر، والثاني هو الطلسمات[40]. وكان ابن خلدون قد حدد الفئات الاجتماعية التي تهتم بقراءة الطالع ومنهم النساء والسوقة، ويضيف ابن خلدون أن إقبال الناس على المنجمين كان كبيرا إلى درجة لاحظ فيها أن الكهان والمنجمين اتخذوها حرفة يسترزقون منها[41].

فتشير بعض النصوص النوازلية إلى ممارسة بعض النساء أشكال السحر والشعوذة من أجل كسب محبة أزواجهن، وإيجاد أزواج يحبونهن، فقد ورد في فتوى أحد الفقهاء "حكم من يشتغل بضرب الخط وغيره من أنواع الكهانة"[42]."كما تتضمن ذات الفتوى ما يفيد شيوع ما يعرف بكتاب المحبة

**ب- اختلاط المرأة بالرجال:**

لعل الحرية التي تمتعت بها المرأة في المغرب الاسلامي جعلتها تخرج عن حدودها، وتتمادى في استغلال تلك الحرية التي منحت لها في بعض الأحيان، فكانت الزوجة تخرج بادية الوجه وترعى وتقوم بالحضور إلى الأعراس والولائم مع الرجال والنساء وترقص إلى جانبهم، وهذا طبعا ينجم عنه فساد خلقي ولربما أمور لا تحمد عقباها، وقد أرجع الفقهاء وعلى رأسهم الشيخ أبي علي منصور بن أحمد المشدالي إلى ضرورة محاسبة الزوج باعتباره هو المسؤول الأول عن زوجته.

وقد أفتى المشدالي: "فيمن كانت له زوجة تخرج وتتصرف في حوائجها بادية الوجه والأطراف كما جرت به عوائد البوادي، أنه لا تجوز إمامته، ولا تقبل شهادته، ولا يحل أن تعطى له الزكاة إن احتاج إليها، وأنه لا يزال في غضب الله ما دام مصرا على ذلك"[32]. ما يبين أن المرأة في البادية تتحرك بحرية تامة وتمشي وهي سافرة وتتكلم مع الرجل، وهذا لا ينطبق على نساء البدو فقط؛ وإنما أيضا على نساء الطبقات الفقيرة في المجتمعات الزراعية.

وهذا كان رأي "أبو عبد الله الزواوي" أن الزوج إن كان قادرا على منع زوجته فعليه فعل ذلك، وإن لم يفعل فما ذكره أبو علي صحيح[33]. وينهى "العقباني" نظر النساء إلى الأجانب من الرجال لغير ضرورة بقوله: "ومن هذا المعنى ما سئل عنه عز الدين هل يجوز للنساء النظر إلى الرجال الأجانب من غير حاجة أولا، وإذا كان في البيت طاق ينظر منها إليهم فهل يجب على الزوج سد تلك الطاق أم يكفيه أن ينهي عن النظر؟ فأجاب بأنه لا يجوز النظر إلى من يشتهيها وتخشى الافتتان..."[34].

**ج- سرقة النساء:**

تعرضت المرأة في المناطق الريفية بالمغرب الأوسط للاختطاف والاستغلال بطريقة شنيعة وكانت آثارها سيئة خاصة ما تعلق بكرامتها وسمعتها، فأغلب اللواتي يتم سرقتهن كن ينتمين إلى القبائل الضعيفة أو الغارمة[35]. وفي هذا

والقلق، فكيف صار عرض الفتاة والعائلة رخيصا إلى هذا الحد؟ وكيف كانت إجابة الفقهاء حيال ذلك؟

فلم تمنع وضعية المرأة ولا تشدد الفقهاء ومراقبتهم للمجتمع من استفحال تلك الظاهرة، وقد تضمن كتاب المعيار جملة من النوازل التي تبين ذلك؛ فكان الرجل يزني بالمرأة ويستمتع بها دون أي تطبيق للشرع أو احترام للعادات والتقاليد، ثم بعد ذلك يتزوجها من غير استبراء، وكثيرا ما كان يحدث الطلاق بعد ذلك[27].

وفي بعض الأحيان كان الرجل يتهرب من مواصلة الحياة مع زوجته، وحتى الأمة كانت تتعرض للخلوة مع بعض الرجال سواء كان سيدها أو غيره[28]، فتذهب المرأة ضحية الزنا "وغالبا ما ينتج عن تلك العلاقة أطفال غير شرعيين إضافة إلى ما يلحق بالأسرة من صراعات ومشاكل تؤدي إلى التفكك الأسري، وانعكاس ذلك على المجتمع ككل"[29]. ولهذا نطرح السؤال التالي: ما الداعي إلى تواجد المرأة في مستنقعات الفساد؟ ومن المتسبب في ذلك؟

لا شك أن هناك أسباب مختلفة دفعت بالمرأة إلى فعل ذلك هو ضعف الوازع الديني وتدني المقومات الأخلاقية من جهة، والسيطرة الكاملة للرجل بمختلف صوره كأب أو كأخ أو كزوج في الأسرة، كذلك تواجد العبيد والجواري في بيوت الأسر الحاكمة والغنية أدى إلى انتشار الزنا والانحلال الخلقي لدى بعض الأسر لتأثيرات الهجرة اليهودية والأندلسية[30]، وقد حرص الفقهاء على التصدي لهذه الظاهرة ومواجهتها، وكانت أغلب فتاواهم تندرج في قالب واحد ألا وهو معاقبة الفاعل والزواج من المرأة وتحمل مسؤوليته تجاهها وتجاه ابنه، كما عارضوا خروج الفتاة الشابة أو المرأة المتزوجة حديثا لأن هذا فيه خطر عليهن فكثيرا ما يكن ضحية لدار الدعارة والفرار من بيت الزوجية[31].

ونفس الشيء مع الأضرحة التي كانت تعرف تجمعات نسوية فقد شكلت مجمعا للنساء يلتقين فيه للبكاء والصراخ سعيا للحصول على الطمأنينة والراحة النفسية، وأيضا سعيا منها للحفاظ على الرباط الأسري، وذلك من خلال "التبرك بالضريح للاعتقاد في قدراته الخارقة في حل المشاكل والعراقيل والمظالم، وتقوم كذلك على الوعدة والحضرة"[21].

وقد حارب الفقهاء ظاهرة زيارة قبور الصالحين مثل "ابن تيمية" (ت 728هـ/1328م) الذي اعتبر زيارة قبور الأنبياء والصالحين، وزيارة القبور لطلب الحاجة واتخاذ الولي وسيلة أو شفيع من العبادات البدعية[22]، وهناك من رفض فقط الممارسات البدعية المصاحبة للزيارة؛ كوضع اليد على القبر وتقبيله، والمسح به على الوجه وأخذ ترابه للاستشفاء[23].

ويشير أحد المستشرقين (فون مالتسان) أن "المرأة في الإسلام محرم عليها دخول الجامع والتعبد فيه، ولهذا اتجهت إلى العبادة في أماكن خارج الجامع فقدست أضرحة الأولياء، ودعت الأسرة كلها إلى هذه العبادة"[24]. بينما يرجع (ماتيو جودري/ M. gaudry) توجه المرأة إلى تقديس الأولياء نابع من إيمانها الضعيف وجهلها والذي له علاقة بالموروث البربري، حتى يمنحها القدرة على إنجاب الأطفال إذا كانت عاقرا والشفاء من الأمراض إذا كانت عليلة[25]. ويبدو أن آراء هؤلاء المستشرقين مبالغ فيها جدا، وهي تنطلق من خلال مشاهداتهم أثناء الفترة الاستعمارية الحديثة، ما جعلهم يقيسونها على فترات سابقة لها، وبكل تحفظ لم يكن الإسلام حاجزا أمام دخول المرأة للمسجد.

**2- عادات تتعلق بالشرف:**

**أ- الزنا:**

من العادات السيئة التي انتشرت في المغرب الاسلامي ويمكن تسميتها بالظاهرة التي حاربها الإسلام ووضع لها حدودا، وهي الزنا التي تعتبر من الممارسات التي يدينها الإسلام بشدة لقوله تعالى: " ولا تقْربوا الزنى إِنه كان فاحِشة وسآء سبيلا"[26]، ورغم ذلك تطورت بشكل فاحش يثير الاستغراب

الحمامات كستر المرأة لنفسها ولها أن تكشف ما ليس بعورة من بدنها؛ فالعري في الحمام اعتبر حراما ومن المنكرات التي يجب محاربتها. وهذا ما حرص عليه الفقهاء وشددوا عليه في كتاب المعيار: "ومنها استرسال النساء في مجتمعهن في الحمامات والمآثم على إظهار ما يخفى من محاسنهن وحصون أجسامهن وما يدعوا إلى اطلاع بعضهن على ما يحل لها من الأخرى، فإن المرأة أكثر محاسنها وخفايا جسمها يحكم لها بحكم العورة فيجب ستره عن النساء كما يجب عن الرجال"[15].

ولأن الحمام يشكل فضاء تتجرد فيه المرأة من ملابسها، وتكون عرضة لأن تنكشف عوراتها، ما جعل الوقوع في الفتنة والعلاقات المشتبهة أمرا غير مستبعد[16]، وهذا ما يتأكد لنا من خلال تلك السلوكيات المشينة التي كانت تتحلى بها بعض النسوة هي الاطلاع على محاسن امرأة أخرى "لتحرك شهوة التفاعل الذي يختار بعضهن لذته عن مباضعة الرجل"[17]. ويبين هذا أن بعض الحمامات في المغرب الاسلامي لم يكن لها ضوابط أو مقاييس معينة تحدد نوعية الداخلات، مما سمح بكثرة ارتياد الفاسقات، ولا يخفى ما يحمله ارتيادهن من البلايا والويلات.

**ج- زيارة المقابر والأضرحة:**

انتشرت هذه العادة في المغرب الاسلامي منذ القديم، "وكانت زيارة الأضرحة والتبرك بهم عملا مستمرا سواء في الأيام العادية أو في المناسبات الدينية"[18]. فقد ورد تحذير النساء من الذهاب إلى المقابر واتخاذها كمجالس للتنزه، وهذا ما نلمسه من النص التالي "يعمدن إلى نصب الأخبية على الجبانات تباهيا وزعما أن يستتر من يطيل الجلوس منهن"[19]. وهو ما كان يتسبب في جلب أصناف الشبان الفساق إليهن والتحرش بهن، وتشدد الونشريسي حيال هذه البدع المستنكرة ورأى في ضرورة منعها من الحدوث والقضاء عليها[20].

وينصح الونشريسي "بأن لا تترك الشابة تجلس للصناع، فأما المتجالة والخادم الدون التي لا تتهم على القعود ولا يتهم من تقعد معه، فإني لا أرى بتلك بأسا"[9].

وتأكيد الفقهاء على منع المرأة من الخروج يبين في حد ذاته أنها كانت تخرج، وربما هذا فيه دلالة على الحرية التي كانت تتمتع بها المرأة وهي لا تختلف في ذلك عن نظيراتها من النساء في الغرب الإسلامي وهو ما يذكره ابن الحاج بقوله: "بل الغالب أن المرأة تشتري لزوجها ما يحتاج إليه في لباسه لنفسه"[10]. ونفس الشيء في الأندلس فقد "اشتهرت المرأة بتحررها والاختلاط بطبقات المجتمع أسوة بالرجال"[11].

**ب- الذهاب إلى الحمام:**

كان شائعا في منطقة المغرب الاسلامي ذهاب المرأة إلى الحمامات كغيرها من نساء الغرب الإسلامي، وأصبح شيئا لا يستغنى عنه لما يقدمه ذلك البيت من المنافع والفوائد الصحية والجسدية. وكانت النساء من مختلف الأعمار لا تتأخرن عن الذهاب إليه في مناسبات عديدة، وقت الزواج والولادة وقبيل الأعياد. وقد ساق لنا كتاب "المعيار" بعض الإشارات التي تخص ذهاب المرأة إلى الحمام بكثرة[12].

وقد ذهب بعض الفقهاء إلى تحريم ذهاب المرأة إلى الحمام وقد استندوا في ذلك على الحديث الذي روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) ويقول فيه:"إنكم ستفتحون أرض العجم وإنكم ستجدون فيها بيوتا يقال لها الحمامات فلا يدخلها الرجال إلا بمئزر وامنعوها النساء إلا نفساء أو مريضة"[13]. وهو ما أورده عمر بن يحي في كتابه أحكام السوق: أحضر متقبل الحمام وأمره أن لا يدخل الحمام إلا مريضة أو نفساء ولا يدخل الرجل إلا بمئزر "[14].

ويظهر أن الحمام كان محظورا دخوله من قبل النساء إلا للضرورة كالاستشفاء أو التطهير من المرض، كما وضعت شروط أثناء دخول

**1- عادات تتعلق بالخروج**

**أ- التردد على السوق:**

الأسواق هي مكان يضم مزيجا من الأجناس القادمة من مختلف الأصقاع والأمصار المحمولة بأنواع المبيعات[2]، ولهذا تم الحرص في منطقة المغرب الإسلامي على تنظيم السوق بوضع مراقب أو ما يعرف بالمحاسب (صاحب السوق)[3]؛ حتى يعمل على تنظيمه ومراقبة ما يجري فيه من بيع وشراء ويكون ذلك بالتجول في المدينة باستمرار مصحوبا بأعوانه[4]. والمرأة في المغرب الإسلامي عرف عنها التواجد في مثل هذه الأماكن ولكن بضواط لا يمكن تجاوزها، فالفقهاء ألزموها احترام القواعد الشرعية بخصوص ذلك وهذا ما يؤكده الونشريسي بقوله: "ويعين للنساء موضعا مستترا يخصهن للخلوة في قضاء ما يحتجن إليه من ذلك"[5].

ومع مرور الوقت أصبح ذهاب المرأة المتكرر إلى السوق عادة لا تستغني عنها، فتجوالها بسبب أو بدون سبب شكل بعض الإزعاج والقلق لدى الفقهاء الذين رأوا في ترددها على الأسواق كل مرة واجتماعهن بها كسوق الغزل والعطارين وأمام دكاكين الصناع ما يجعلهن يختلطن بالرجال والسماسرة فيدخلن معهم في الحديث والمزاح غير المشروع كتبادل كلمات الغزل والنظرات الآثمة، وقد وصف الونشريسي ذلك بأنه"منكر ظاهر ومدعاة إلى النزو وارتكاب لمحارم الله تعالى"[6].

وكان الفقهاء يتخوفون كثيرا من خلوة بعض النساء ببعض الباعة خصوصا في وقت القائلة "...إن وقع إكثار من جلوس النساء للصناع وطول مقام من المرأة لغير فائدة أو في أوقات يخاف فيها التطرق إلى الفساد مثل أوقات القائلة وغفلة الناس أو يكون المكان خاليا أو خلوة في منزل الصانع"[7].

وفي نفس السياق يذكر "العقباني" عن بعض النسوة اللاتي يطلن الوقوف واستدعاء الحديث مع "فسقة العبيد وبعض الأحرار من ظهرت آثاره في كثير من الدور بولادة الخدم فيهن أبناء الزنى..."[8].

this show the role of the nawazel in different social subject. Which attract the researchers. Points of view need study and analysis since they have an essential role in figuring out the social image of woman; its mysterious image and the lack of scientific studies .

**-مقدمة:**

كانت المرأة تمارس بعض العادات التي كانت ترى فيها حريتها وراحتها وطمأنينتها، غير أن هذه العادات لقيت رفضا من قبل الفقهاء فاستنكروها بشدة، واعتبروها ضررا كبيرا على المرأة المسلمة العفيفة والمصونة بدينها الحنيف "الإسلام"، هذا الدين الذي أنصف المرأة وكرمها ورفع شأنها.

وسنحاول من خلال هذه الدراسة إلقاء الضوء على بعض العادات الخاصة بالنساء التي نهى عنها الفقهاء والتي تعكسها الفتاوى الموجودة في كتاب "المعيار" للونشريسي وذلك من خلال الأسئلة والأجوبة التي تتضمنها النازلة، "فالأسئلة دائما تأتي الفقهاء بعد تجاوز الشرع بعادة، حينذاك يلجأ الناس إلى الفقهاء للتوفيق بين الشرع والعادة، بمعنى تطويع الشرع لخدمة العرف والعادة، حتى ولو استند المفتي لمرجعية أخرى غير مذهب الإمام مالك"[1] السائد في المغرب الأوسط للتوفيق بين الشرع والعرف. ويهدف هذا المقال إلى تبيان أهم هذه العادات غير المرغوب بها من قبل الفقهاء من خلال نوازل المعيار للونشريسي. كما سيتطرق إلى استظهار مواقف الفقهاء تجاه المرأة التي تمارس هذه العادات.

- عادات تتعلق بالخروج: ونذكر منها الذهاب إلى الحمام، التجول في الأسواق، زيارة الأضرحة والمقابر.

- عادات تتعلق بالشرف: ونذكر منها الزنا، اختلاط المرأة بالرجال، سرقة النساء.

- عادات تتعلق بمعتقد المرأة: ونذكر منها: السحر والشعوذة، الإفطار في شهر رمضان، النواح ولطم الخدود على الميت، الاعتقاد في الطيرة والفأل.

# عادات المرأة المغربية المنهي عنها من خلال نوازل المعيار للونشريسي

أة/قاسيمي ربيعة*

- **الملخص:**

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في موضوع لا يقل أهمية عن المواضيع الاجتماعية الأخرى التي كان لها نصيب في كتابات الباحثين والدارسين، ولهذا ارتأينا التقصي في بعض العادات التي مست المرأة في مجتمع المغرب الإسلامي، وهذه العادات السيئة، أو غير المرغوب فيها سواء من قبل الفقهاء خصوصا، والمجتمع عموما استنكرها الفقهاء فبينوها وحذروا منها. حيث اعتبروها منافية للشرع وقيم المجتمع، على اعتبار أن مثل هذا النوع من العادات يحط من قيمة المرأة، ويضعها في مكانة غير مكانتها الحقيقية.

طرحنا لهذا الموضوع سيكون من خلال نوازل المعيار للونشريسي، إذ تعبر بشكل مباشر أو غير مباشر عن الحضور المعتبر للمرأة داخل مجتمع المغرب الإسلامي، حتى وإن كان بالشكل السلبي، وهذا يبين الدور الذي تلعبه النوازل في العديد من المواضيع الاجتماعية، التي أصبحت تستهوي أنامل الباحثين. الأمر الذي يجعلها جديرة بالدراسة والتحليل، لمالها من أهمية في استجلاء الصورة الاجتماعية للمرأة بالرغم من غموض صورتها فيها من جهة، وندرة الدراسات العلمية من جهة أخرى .

**Abstract:**

This study aims at investigating the habits of woman in the Maghreb Islamic. Which were denied by of jurist « fakihs » and explained. They considered those habits both against religion and the values of society. This kind of habits reduces the value of woman and place her in and appropriate place.

Our selection for this topic will be over nawazel al me'yar for wancharissi. It regards the presence of the women directly inside Maghreb Islamic society. Even if this presence consider negatively and

* - طالبة دكتوراه بقسم التاريخ، كلية العلوم الإسانية ، جامعة وهران 1، الجزائر.

80- الخراج والجزية تصرف في المصالح العامة، وتحتاج إلى اجتهاد، ويتعلق بها حق جميع المسلمين، والإمام هو النائب لهم، والمجتهد في تعيين مصالحهم/ ابن رجب الحنبلي: الاستخراج لأحكام الخراج، بيت الأفكار الدولية، ط 2004، ص211.

81- جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص422. إبراهيم بكير بحاز: الدولة الرستمية، ص294.

82- ابن الصغير: المصدر السابق، ص35.

83- نفسه، ص35.

84- نفسه، ص41.

85- الماوردي: المصدر السابق، ص268 .269.

86- عبد الفتاح تقية: المرجع السابق، ص139.

87- جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص422.

88- فطيمة مطهري: المرجع السابق، ص166.

89- بحاز إبراهيم: عبد الرحمن بن رستم، ص44.

90-يحي أحمد الكعكي:المرجع السابق، ص79. إبراهيم بكير بحاز، الدولة الرستمية، ص294.

91- عبد الوهاب النجار: الخلفاء الراشدون، المكتبة العصرية بيروت صيدا، 1423هـ/ 2002م، ص 347.

92- ابن خلدون: المقدمة، ج2، ص 329.

93- إبراهيم بكير بحاز، الدولة الرستمية، ص295.

94- نفسه، ص295.

95- نفسه، ص40.

96- ابن الصغير: المصدر السابق، ص12،11.

59- نفسه ؛ ص243.
60- ابن الصغير: المصدر السابق، ص43.
61- إبراهيم بكير بحاز: الدولة الرستمية، ص288.
62- نفسه، ص289.
63- جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص390.
64- الدرجيني أبو العباس أحمد(ت 670هـ): كتاب طبقات المشائخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، مطبعة البعث قسنطينة الجزائر، ج 1، ص 156.
65- الشماخي: المصدر السابق، ص110.
66- الجوالي: مرادف للجزية وهذا ما ورد عند ابن حوقل في كتاب صورة الأرض الذي فضل استعمال كلمة الجوالي على الجزية، ابن حوقل: صورة الأرض، ص94.
67- جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص396.
68- جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص398.
69- ابن الصغير: المصدر السابق، ص35.
70- بحاز إبراهيم؛ عبد الرحمن بن رستم( 160هـ_171هـ/777م_788م) مؤسس أول دولة إسلامية مستقلة بالجزائر؛ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ص43.
71-ابن الصغير: المصدر السابق، ص35.
72- سورة التوبة، الآية60.
73- ابن الصغير: المصدر السابق، ص291.
74- ابن الصغير: المصدر السابق، ص41.
75- نفسه، ص41.
76- جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص392.
77- نفسه، ص392.
78-سورة الأنفال: الآية 41.
79-الفيء هو تلك الأموال التي حصل عليها المسلمون دون جهد أو مشقة، بل كانت نتيجة انهزام الأعداء وينقسم خمس الفيء والغنيمة، إلى ثلاثة أقسام: الماوردي: المصدر السابق، ص367. قسم منه لبيت المال، وهو ما خصصه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم، يصرف في المصالح العامة، لوقوف مصرفه على رأي الإمام واجتهاده. نفسه، ص367. والقسم الثاني لذوي القربى وقد بين الشرع مالكيه، ولا حق لبيت المال فيه. نفسه، ص367. والقسم الأخير منه لليتامى والمساكين وابن السبيل، وقد تعين على بيت المال حفظه لحين وجود مالكيه. أما الفيء والغنيمة فهما متفقان من وجهين ومختلفان من وجهين، فأما وجها اتفاقهما: احدهما أن كل واحد من المالكين واصل بالكفر والثاني أن مصرف خمسهما واحد أما وجها افتراقهما: فاحدهما أن مال الفيء مأخوذ عفوا، ومال الغنيمة مأخوذ قهرا. ويعتبر مال الذمي الذي لم يترك وارثا، فيئا تنفقه الدولة في المشاريع التي تعود بالنفع على عامة المسلمين. عبد الحفيظ منصور: المرجع السابق، ص247.

32- أحمد رضا، المرجع السابق، مج5، ص332 .
33- إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص262.
34- جودت عبد الكريم يوسف، المرجع السابق، ص402.
35- خالدي بلعربي: العلاقات التجارية بين تاهرت ومراكز التجارة في بلاد المغرب والأندلس حتى أواخر القرن الثالث الهجري؛ مجلة الآداب والعلوم الإنسانية؛ سيدي بلعباس؛ العدد الخامس؛2006|1427؛منشورات مكتبة الرماد؛ الجزائر؛ ص236. بلهواري فاطمة: العلاقات التجارية بين بلاد المغرب وإفريقيا السوداء خلال القرن الرابع الهجري/10م، مجلة عصور، وهران، الأعداد 08/09-10/11، 2006-2007، ص152-153-154.
36- خالدي بلعربي: المرجع السابق؛ ص236.
37- القاضي أبو يوسف: المصدر السابق، ص22.
38- عبد الوهاب السيد عوض، المرجع السابق، ج2، ص739.
39-جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص402.
40- البخاري: المصدر السابق، ج7، ص86.
41- جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص402.
42 ابن الصغير: المصدر السابق، ص246.
43 - عبد الفتاح تقية: دروس في تاريخ النظم القانونية، ط2 سنة 2006، منشورات ثالة الأبيار الجزائر، ص139.
44- جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص402. عبد الحفيظ منصور: المرجع السابق ؛ ص245.
45- جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص414.
46- ابن الصغير: المصدر السابق، ص41.
47-نفسه، ص414/415.
48- جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص415.
49- نفسه، ص415.
50- الوسياني أبو الربيع، السير، ص195-203.
51- فطيمة مطهري: مدينة تيهرت الرستمية دراسة تاريخية حضارية(القرن2-3هـ/8-9م)، اشراف معروف بلحاج، مذكرة ماجستير في تاريخ المغرب الاسلامي، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2010/2009م، ص165.
52- ابن الصغير: المصدر السابق، ص329.
53- ابن الصغير: المصدر السابق، ص47.
54- جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص402.
55- إبراهيم بكير بحاز: الدولة الرستمية، ص295.
56- القاضي أبو يوسف ؛ المصدر السابق ؛ ص90.
57- نفسه؛ ص89.
58- عبد الحفيظ منصور؛ المرجع السابق؛ ص243.

وتعالى- وقال بعضهم: بل حكمها والنظر فيها إلى الإمام: إن رأى أن يجعلها غنيمة؛ فيخمسها ويقسمها؛ كما فعل الرسول- صلى الله عليه وسلم- بخيبر؛ فذلك له؛ وإن رأى أن يجعلها فيئا فلا يخمسها ولا يقسمها ولكن تكون موقوفة على المسلمين عامة ما بقوا كما صنع عمر بالسواد. يحي بن أدم القرشي (203هـ): المصدر السابق، ص37-38. عبد الحفيظ منصور، المرجع السابق، ص235.

14- عبد الحفيظ منصور: المرجع السابق؛ ص236. على أن هذه المعلومات مستقاة من كتاب البكري ص65؛ إلا أننا نعتقد أنها من كتاب الشماخي: المصدر السابق، ص43.

15-إن السؤال الذي يطرح نفسه بشدة هو: هل مسح عبد الرحمن بن رستم الأرض التي كان هو أميرا عليها؟ فقد ذكر يحي بن أدم قائلا:" أرض الخراج ما مسح ووضع عليه الخراج" وليست لدينا معلومات عن ذلك عند الرستميين فقد أورد ابن الصغير قائلا:"ثم ينظر إلى ما اجتمع من مال الجزية وخراج الأرضين وما أشبه ذلك"، لا يتبين لنا من هذا النص إذا كان عبد الرحمن بن رستم قد مسح الأرض التابعة له أم لا، لكن يمكن القول أنه قد قدرها بالتقريب بما أنه قبض خراجها. ابن الصغير: المصدر السابق؛ ص 41.

16-جودت عبد الكريم يوسف: نفسه، ص398.

17- محمد الخضري بك: الدولة الأموية محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط1، 1424هـ/2003م، ص316. عبد الحفيظ منصور: المرجع السابق، ص235.

18- صبحي الصالح: النظم الإسلامية نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، ص359.

19- يبدوا أنه خطأ مطبعي فالكلمة درهم بدل درعم.

20- يحي بن أدم: المصدر السابق؛ ص64.

21- ابن الصغير: المصدر السابق، ص41.

22-فطيمة مطهري: مدينة تيهرت الرستمية دراسة تاريخية حضارية(القرن2-3هـ/8-9م)، مذكرة ماجستير في تاريخ المغرب الاسلامي، جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان، 2010/2009م، ص163.

23- ابن الصغير: المصدر السابق، ص36. عبد الحفيظ منصور: المرجع السابق، ص239.

24- الماوردي: المصدر السابق، ص233. عبد الحفيظ منصور: المرجع السابق، ص245.

25- ابن الصغير: المصدر السابق، ص 41.

26- جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص402.

27- عبد الحفيظ منصور: المرجع السابق ؛ ص241.

28- الشراة: مشايخ الإباضية. الشرة مؤنث الشر للتفضيل. يقال "هي خيرتهن" وبالتالي فالشراة هم خيرة القوم عند الإباضية. منجد اللغة والأعلام، ص380.

29- جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص402.

30- يحي أحمد الكعكي، المرجع السابق، هامش رقم ص78.

31- المكوس التي يعرفها ابن منظور على أنها: الضريبة التي يأخذها الماكس وأصله الجباية، والماكس، العشار. والمكس ما يأخذه العشار. ففي حديث ابن سيرين قال لأنس: تستعملني أي على عشور الناس فاماكسهم ويماكسوني. وفي حديث جابر قال له: أترى أنما ماكستك لأخذ جملك، فكل من يبيع شيئا يؤخذ منه الخراج أو العشر. ابن منظور: لسان العرب، ص81. نفسه، ص568 / عبد الوهاب السيد عوض، المرجع السابق، ج2، ص 916.

**-الهوامش:**

1-عبد الرحمن بن رستم: بن بهرام مؤسس مدينة تاهرت، وأول من ملك من الرستميين وكان من فقهاء الإباضية بإفريقيا، معروفا بالزهد والتواضع، ولما تغلب (أبو الخطاب) على إفريقيا استخلفه على القيروان وقتل (أبو الخطاب) سنة 144هـ، ففر عبد الرحمن بأهله وما خف من ماله إلى الغرب ولحقت به جماعات من الإباضية فنزل بموضع (تاهرت) وكانت غيضة بين ثلاثة انهار، وفيها عمران قديم فبنى أصحابه فيها مسجدا من أربع بلاطات واختطوا مساكنهم سنة (161) هـ وبايعوه بالإمامة، فأقام إلى أن توفي وهو فارسي الأصل، كان جده بهرام من موالي عثمان بن عفان. عن خير الدين الزركلي: كتاب الأعلام، ج3، ص306.

2-ابن الصغير(القرن الثالث الهجري): أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق وتعليق محمد ناصر إبراهيم بحاز، دار الغرب الاسلامي بيروت لبنان سنة 1406هـ/1986،ص41، ينظر إبراهيم بكير بحاز، الدولة الرستمية 160_296هـ/777_909م دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية، ط 3، الجزائر 1431هـ/2010م، منشورات ألفا الجزائر، ص7-9. للشماخي(928هـ/1522م): كتاب السير، الجزء الخاص بتراجم علماء المغرب إلى نهاية القرن الخامس 3هـ/9م، تحقيق ودراسة محمد محسن، شركة اورنيس للطباعة تونس نوفمبر 1995، ص46.

-Abdallah laroui. L histoire du Maghreb un essai de synthese 1. Francois maspero. Paris 1976. P103.

3-ابن الصغير: المصدر السابق، ص41.

4-جودت عبد الكريم يوسف: المرجع السابق، ص392.

5-نفسه، ص391.

6- النكارية: هي فرع من فروع الخوارج الإباضية في المغرب الأوسط والأدنى. المنجد في اللغة والأعلام، ص577.

7-يبيب بن زلغين: اشتهر بالتقوى والدنيا، وكان سخيا فاضلا، كان له ثلاثون ألف ناقة وثلاثمائة ألف شاة واثنا عشر ألف حمار، إذا جاءه العامل وقت الصدقة، قال للرعاة: اختاروا خيار الإبل، فغيبوها ويأمر العامل بأخذها. الشماخي: المصدر السابق، ص121-122.

8-نفسه، ص123.

9-إبراهيم بكير بحاز، الدولة الرستمية، ص290.

10- الشماخي: المصدر السابق، ص121-122.

11- ابن الصغير: المصدر السابق، ص46.

12- عبد الحفيظ منصور: السياسة الداخلية للإمارة الرستمية (160هـ_296هـ|777م_909م، ص248.

13-قال أبو عبيد وجدنا الآثار عن الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده قد جاءت في افتتاح الأرضيين بثلاثة أحكام: أرض أسلم عليها أهلها فهي لهم ملك أيمانهم ؛ وهي أرض عشر؛ لا شيء عليهم فيها غيره. وأرض افتتحت صلحا على خرج معلوم؛ فهم على ما صولحوا عليه؛ لا يلزمهم أكثر منه. وأرض أخذت عنوة؛ فهي التي اختلف فيها المسلمون؛ فقال بعضهم: سبيلها سبيل الغنيمة ؛ فتخمس وتقسم؛ فيكون أربعة أخماسها خططا بين الذين افتتحوها خاصة ؛ ويكون الخمس الباقي لمن سمى الله -تبارك

مصلحا، ساعيا إلى ازدهار الحياة العامة في أنحاء دولته، وكان كثير من غير الإباضية يتجهون إلى تاهرت آمنين على أنفسهم وممتلكاتهم.

إن الازدهار الاقتصادي الذي عرفته الدولة الرستمية غذى بيت المال الرستمي حيث لم تكن نفقاتهم كبيرة أو بحجم الموارد لذلك فإن جزءا منها كان يصرف في الصالح العام وهذا ما يفسر الرخاء الذي شهدته الدولة، والازدهار الذي واكبها خلال كل مراحل حكمها، وقد صبغت كل موارد ونفقات بيت المال بصبغة دينية.تضاعفت نفقات بيت المال بنفقات الجيش، وتجهيزه في عهد عبد الوهاب بن عبد الرحمن، خاصة إذا عرفنا أن حكمه كان شبه عسكري، وكان قد "اجتمع له من الجيش والحفدة ما لم يجتمع لأحد قبله"[95]، كما أنه وجد القاعدة مهيأة منذ عهد والده عبد الرحمن، الذي كان قد ترك عدة حربية لا بأس بها، استطاع ابنه من بعده أن يوظف لها الجيوش، ويملأ المغرب بأسره من مدينة طرابلس إلى مدينة تلمسان، فلا شك أن هذه العمليات العسكرية تتطلب أموالا طائلة، بالرغم من عدم استمرارها طويلا، إذ تلاشت بوفاة الإمام عبد الوهاب.

انتعش الرستميون بالأموال التي بعثها إباضية المشرق في السنوات الأولى من حكمهم، ودعمت بيت مالهم، كمورد مؤقت غير مستمر، إلا أنهم لم يجدوا هذه المساعدة في السنوات الأخيرة من حكمهم، عندما كثرت الفتن والمنازعات، التي لا شك أنها أرهقت بيت المال ودار الزكاة على حد سواء، وهو ما عبر عنه ابن الصغير بقوله: "وذهبت الأموال"[96]، وذلك بسبب ما ألت إليه الأوضاع بعد المنازعات والفتن من عرقلة للتجارة وتحطيم للزراعة، الأمر الذي أثر سلبا على موارد كل من بيت المال والزكاة وبالتالي قلة الجباية. إن من أسباب سقوط الدولة الرستمية على يد الفاطميين، تراجع وضع النظام الجبائي في أواخر الدولة وتدهور الأوضاع الاقتصادية، وبالتالي تقلص الجباية ونقص واردات الدولة.

الإمارة، والمسجد الجامع، والدواوين، ومركز الشرطة، والسجن والمارستانات أحيانا، كما توفر ماء الشرب للأهالي.لم يكن الرستميون من المهتمين بملأ الخزائن، وجباية أنواع متعددة من الضرائب، وإنما اكتفوا بالحقوق الشرعية دون غيرها مع بعض الرسوم الواجبة والتزموا بصرفها في وجوهها الشرعية أيضا، دون أن يأخذوا منها شيئا ليس من حقهم، ومثال ذلك ما يرويه لنا ابن الصغير عن خادم الإمام أبي اليقظان الذي استسهل أخذ علف فرس الإمام من بيت المال، وذلك لما وجد دكان العلف مغلقا، فزجره الإمام عندما عرف ذلك، وأقسم في ليلته تلك ألا ينام حتى يرد العلف إلى بيت مال المسلمين، ولم يهدأ حتى تيقن من إرجاع الأموال إلى مواضعها[93].

فلم يكن الرستميون ممن يؤثرون أنفسهم بالأموال، أو تكن لهم الحرية في التصرف فيها، بل لقد كان الإمام يعقوب بن أفلح من الزهد بحيث ما قبض بيده دينارا ولا درهما[94].إن الضرائب المشروعة وغير المشروعة التي كانت تجبى من هذه المناطق، كانت تمثل موردا ماليا هاما لبيت المال على مستويين الإداري والمحلي في الدولة الرستمية بجانب الأموال الخراجية التي تصلها من الأراضي والقرى الزراعية، ولعل الازدهار الاقتصادي الذي عرفته تيهرت، كان من شأنه أن يغذي كلا من دار الزكاة، وبيوت الأموال في الدولة الرستمية عموما، إذ لم تكن النفقات كبيرة بحجم الموارد، لذلك فجزء منها يصرف في الصالح العام، ولعل هذا ما يفسر الرخاء الذي شهدته الدولة الرستمية والازدهار الذي واكبها خلال كل مراحل حكمها، حيث سيرت كل من دار الزكاة وبيوت الأموال ونفقاتها وفقا لتعاليم الشريعة الإسلامية. عرفت الجباية في المغرب الأوسط مع تشكل أول سلطة سياسية بها إذ شكلت الدعامة الأساسية للدولة الرستمية، حيث عملت هذه الدولة على جمع أكبر قدر من المداخيل لتدعيم نفوذها بالمنطقة ورد أعدائها. فقد شهدت مدينة تاهرت ازدهارا على عهد بني رستم حتى صارت ملتقى للتجار والعلماء والطلبة من جميع أنحاء العالم الإسلامي؛ وذلك لأن عبد الرحمن بن رستم كان عادلا

بينما سفيان الثوري فيؤكد أن أجور العشر على أهل الأرض، وقال مالك أجور العشر على صاحب الأرض[85].

تعبئة الجيش: أو ديوان النفقات: ويعرف أيضا بديوان الزمام والنفقة، وكانت مهمة هذا الديوان تتمثل في صرف ما ينفق في تسليح الجيش، وتجهيزه بكل لوازم الحرب من سلاح، وعتاد، وتجهيزه بالألبسة، ودفع رواتب الجند، وإدارة شؤون موظفيه[86]. حيث لعبت الظروف دورا مهما بالنسبة للرستميين اضطر فيها الأئمة إلى حشد المقاتلين، فقد عد الإمام عبد الوهاب في عسكره ألف فرس أبلق، وكان الإمام حاتم قد أخرجه أبوه في جيش، هو من الحاشدة والمتطوعة وهؤلاء كانوا يكلفون "بيت المال" أموالا، فحين دخل الإمام أبو حاتم حربا ضد العوام "أعطى الأموال وحمل على الخيل"[87]. هذه ظروف ألزمتها لحشد المقاتلين، فكانوا يدفعون لهم رواتبهم، ويؤمنون لهم المؤن والعتاد الحربي إلى جانب نفقات المتطوعين، كما تكفلوا بأسر الجنود[88].

مصارف عامة: لقد نجح عبد الرحمن بن رستم في إقامة دعائم دولة قوية ثابتة، إلى أقصى حد حتى أن ابنه عبد الوهاب عندما تولى الحكم بعده وجد الدولة قوية في سياستها الداخلية، فحول نظره إلى السياسة الخارجية[89].إن حصيلة بيت المال المركزي، وجهتها الدولة الرستمية للنفقات المختلفة مثل: نفقات القصور، وأرزاق الجند، ورواتب الموظفين، ونفقات المشروعات العامة مثل حفر الترع والقنوات وتطهيرها، وإقامة الجسور، وبناء دور العلاج (المارستانات) ومنح العلماء والأدباء، والنفقة على المسجونين، وأسرى الحرب من المشركين، ودفن موتاهم[90].لقد كانت مصاريف الخراج تصرف في أبوابها المستحقة حيث تدفع منها أرزاق الجند، ومصاريف الخلفاء مما تقتضيه المصالح العامة، وأما الباقي فيرسل إلى بيت المال ليصرف في مصارفه.[91]وقد كانت مدينة تيهرت تستأثر بالنفقات الحكومية باعتبارها العاصمة وهي التي سماها ابن خلدون بالمدن المتوسطة في الأقطار التي هي مركز الدولة ومقرها، وما ذلك إلا لمجاورة السلطان وفيض أمواله فيهم، كالماء يخضر ما قرب منه من الأرض[92]. ويمكن حصر نفقات المدينة في صيانة المنشآت العامة كدار

قدِيرٌ "[78]. يتبين من الآية أن حق الرسول صلى الله عليه وسلم في الغنائم[79] هو في الواقع حق الدولة في هذه الأموال؛ وعلى الإمام أن يوزعه على من ذكروا في الآية الكريمة:" لِلرسولِ ولِذِي الْقربى والْيتامى والْمساكِينِ " لا يوضع في غيرهم وعليه أن يتحرى العدل في ذلك، وهذا ما عمل به الأئمة الرستميين خاصة منذ عهد الإمام عبد الوهاب.

أجر السلطان وحاشيته وعماله: لقد عمد عبد الرحمن بن رستم على تطبيق الشرع قدر استطاعته، فالجزية والخراج لم يرد فيها نص شرعي في سبل صرفها لهذا اجتهد عبد الرحمن في أبواب صرف مال الجزية والخراج[80]، فقسم لنفسه وأهله وعماله ومساعديه في الدولة من قضاة وأعوان وأصحاب الدواوين المختلفة وغيرهم[81]،وهذا ما ذهب إليه ابن الصغير بقوله: "ثم ينظر إلى ما اجتمع من مال الجزية وخراج الأرضين وما أشبه ذلك، فيقطع لنفسه وحشمه وقضاته وأصحاب شرطته والقائمين بأموره ما يكفيهم في سنتهم"[82].

وهذا دليل على أن أجر عمال الدولة كان سنويا، وهذا من تنظيمات الجهاز الإداري التي وضعها عبد الرحمن؛ أما ما بقي من هذا المال فيصرفه عبد الرحمان في مصالح المسلمين: "ثم إن فضل فضل صرفه في مصالح المسلمين"[83]وهذا يدل على حكمة عبد الرحمن وحسن تدبيره وسعة علمه، فقد كان مطلعا على أمور الحكم في الإسلام بالرغم من حداثته في بلاد المغرب، وبهذا الشكل حافظ عبد الرحمن على وحدة دولته وزاد في تقويتها فإن العدل أساس الحكم: "فلم تزل أموره كذلك وعلى ذلك والكلمة واحدة والدعوة مجتمعة ولا خارج يخرج ولا طاعن يطعن عليه، إلى أن اخترمته المنية، وانقطعت أيام مدته"[84].إذن يمكن القول أن أكبر النفقات كانت في رواتب الموظفين من حشم وقضاة وشرطة والقائمين بأمور الدولة عامة، إضافة إلى أجر الإمام نفسه وكلهم يتقاضون رواتب على أعمالهم. أما أجر قسام العشر من الحق الذي استوفاه السلطان منه، وهذا حسب الشافعي، أما أبو حنيفة فيقول: أجور من يقسم غلة العشر وسط من أصل الكيل.

بجمع ما بقي من مال الصدقة، فاشترى منه أكسية صوف وجبابا صوفا وفراء وزيتا ثم دفع في كل أهل بيت بقدر ذلك"[74].

لقد كان عبد الرحمن يؤثر أهل الحاجة من مذهبه عن البقية، وهذا ما قاله ابن الصغير: "ويؤثر بأكثر ذلك أهل الفاقة من مذهبه"[75]، فيمكن أن يكون ذلك تشجيعا لهم للثبات على مذهبهم، أو تحفيزا للبقية للتحول إلى مذهبه وهي طريقة مثلى لذلك، فعبد الرحمن يظهر بهذا أنه صاحب رسالة ولم يعمل للملك بل لنشر مذهبه والثبات عليه، ويمكن أن تكون مغريات المذاهب الأخرى كبيرة لهذا هو يشجع أهل مذهبه من رعيته ونحسبهم من البربر الذين أسلموا حديثا وهي طريقة لتشجيعهم على الثبات على مذهبهم ومساندتهم له.

أما عن أتباع المذاهب الأخرى فيبدو، أن الإباضية أنفسهم لم يتفقوا حول زكاتهم، فبينما يرى بعضهم كابن عبد العزيز وشعيب "أن الزكاة كلها لأهل الإسلام مسلمين كانوا أومن قومنا تؤخذ منهم وتوضع فيهم"[76]، يرى ابن خلفون في كتاب "الأجوبة" للإمام أفلح بن عبد الوهاب "أن الزكاة لا توضع إلا في أهل الولاية من المسلمين"[77]، فهل كانت الزكاة تجبى من غير الإباضية ولا توضع فيهم؟ ثم هل كان هؤلاء يدفعونها للأئمة الرستميين؟.

يذكر ابن الصغير أن إباضية سجلماسة كانوا يبعثون بزكاة أموالهم من سجلماسة إلى الإمام أبي اليقضان، فإذا حدث أن دفع المخالفون الزكاة للرستميين فربما لم تكن عن طيب خاطر، كما يمكن أن تكون الجباية سبب كل المشاكل التي واجهتها تيهرت، كما يمكن أن يكون دفعهم لها لاعتبارهم خوارج مثلهم، هذا عن الزكاة فماذا عن الغنائم؟

ما دامت الغنائم ناتجة عن الاشتباك بين المسلمين والمشركين وهي حق للذين شاركوا في الحرب استنادا لقوله تعالى:" واعْلموا أنما غنِمْتم مِن شيْءٍ فأن لِلهِ خمسه ولِلرسولِ ولِذِي الْقرْبى والْيتامى والْمساكِينِ وابْنِ السبِيلِ إِن كنتمْ آمنتم باللهِ وما أنزلْنا على عبْدِنا يوْم الْفرْقانِ يوْم الْتقى الْجمْعانِ والله على كلِ شيْءٍ

ورتب أجهزتها، فسياسته داخلية كانت ترمي إلى الرقي الاقتصادي والاجتماعي.

ديوان الصدقات: كان اختصاص ومهمة ديوان الصدقات توزيع موارد الزكاة على مستحقيها من المسلمين على النحو الذي أشار إليه القرءان الكريم، إذ كانت الزكاة تصرف في بداية الدولة الرستمية كما نص عليه الشرع الحنيف على الفقراء والمساكين مباشرة بعد جمعها لقول ابن الصغير: "فإذا حضر جميع ذلك صرف الطعام إلى الفقراء"[71]، أما فيما يخص الأنعام من شياه وبعير فتباع لتحول إلى مال تدفع به أجور العمال في الدولة الرستمية، وهذا مصداقا لقوله تعالى:" والْعامِلِين عليْها "[72].

وقد عمل عبد الرحمن على تطبيق ذلك لقول ابن الصغير: "وبيعت الشياه والبعير، فإذا صارت أموالا دفع منها إلى العمال بقدر ما يستحقون على عملهم"، ويتمم عبد الرحمن تطبيق الأمر الإلهي حيث يأمر عماله بإحصاء جميع الفقراء والمساكين في البلاد ليوزع عليهم ما بقي من مال الزكاة وطعامه حيث يقول ابن الصغير: "ثم نظر في باقي سائر المال فإذا عرف مبلغه أمر بإحصاء من في البلد وفيما حول البلد، ثم أمر بإحصاء الفقراء والمساكين، فإذا علم عددهم أمر بإحصاء ما في الأهراء من الطعام"[73]. يتبين من هذه العبارات قوة الجهاز الإداري الذي شكله عبد الرحمن، حيث نستشف وجود سهولة في عملية إحصاء المساكين والفقراء، وحتى إحصاء ما في بيت المال من طعام الصدقات، وهذا دليل على حسن القيادة لدى عبد الرحمان إذ يبدو أنه تعلم هذا من المشرق، فبلاد المغرب والمغرب الأوسط خاصة لم يشهد تشكل دولة قوية البنيان قبل الدولة الرستمية. يبدو مما قدمه ابن الصغير أن أهل تيهرت، ومن سكنوا بها كانوا فقراء لدرجة أنهم كانوا في حاجة إلى الطعام واللباس، وهما من ضروريات الحياة، إلا أن حكمة عبد الرحمن تتجلى هنا في معرفته الكبيرة بحاجة رعيته وهذا دليل على أنه كان يعيش لرعيته وبينهم، فقد عدد لنا ابن الصغير ما كان يأمر بشرائه: "ثم أمر

حيث يذكر ابن الصغير أن أهل الصدقة كانوا يقبضون "أعشارهم في هلال كل ... من أهل الشاة والبعير" يبدوا أن المحقق لم يستطع تحقيق الكلمة المحذوفة، إلا أن استعمال كلمة "هلال" تدل على أن الكلمة المحذوفة هي شهر، ومنه يمكن القول أن الجباية كانت تقع شهريا.

بينما يذكر جودت عبد الكريم وجهة نظر أخرى، أن وقت جباية الخراج كان سنويا، أي بعدما ينتهي الناس من جمع محصولهم، ويبدو أن عبد الرحمن بن رستم كان ينظر في مال الجزية والخراج فيقتطع منه "ما يكفيهم في سنتهم[69]" فكأن هذا المال كان يجتمع مرة واحدة في السنة.لم يشر المؤرخون إلى مبلغ الخراج الذي جباه الرستميون، ويبدو أنه كان متذبذب بين سنة وأخرى، بل وبين إمام وإمام، وأرض وأرض من حيث الخصب والقحط . كما يبدو أن الرستميين اعتمدوا على البربر في جباية الأموال لأنهم أدرى بالمنطقة ويمثلون عصب الدولة، إذ تميزت طرق الجباية بعد ذلك بالعنف وسوء المعاملة من قبل الجباة وذلك لرفض الناس دفع المغارم نظرا لكثرتها وتعددها.

صرف أموال الجباية: أسس عبد الرحمن بن رستم مبدأ الشورى في دولته منذ نشأتها، خاصة فيما يتعلق بتقسيم الأموال بين المسلمين في دولته كل حسب حاجته؛ وهذا ما تجسد في صرف الأموال التي قدمت إليه من المشرق؛ وهو دليل على حنكته السياسية والاجتماعية والاقتصادية العالية، إذ اتفق مع وجوه القبائل على أن توزع الأموال "ثلث في الكراع، وثلث في السلاح، وثلث في فقراء الناس وضعفائهم"[70].

إن هذه المساعدة المشرقية التي ساهمت بشكل كبير في نقل الدولة من طور النشوء والتأسيس والخوف إلى طور النضج والقوة والأمن والثقة بالنفس، تعتبر أول تطور شهدته الدولة، فقد ارتقى المجتمع التاهرتي بسرعة نتيجة سياسة عبد الرحمن الاقتصادية وعدله ونزاهته[70]، وبهذا يكون عبد الرحمن قد هيأ لدولته كل أسباب الاستقرار والديمومة حيث نظم إدارتها،

أو بعضهم عن دفعها في حينها، ويمكن أن يكون سبب ذلك الاختلاف المذهبي، فمثلا امتناع النكارية عن دفع الزكاة دليل على العصيان أو عدم الرضا والولاء للسياسة المنتهجة من قبل الرستميين.

لعب فساد البطانة دورا كبيرا في تراجع نسبة الجباية، فرغم قوة عبد الوهاب وصرامته، إلا أن الأمور بدأت تخرج عن سيطرته، حيث أن فساد بطانة الملك تفسد ملكه، وبهذا ضاع حق الرعية على عهد عبد الوهاب، إذ وصف الرعية صاحب بيت المال بالخائن، وهذا دليل على أن الفساد بدأ يدب في ربوع الدولة منذ تولي عبد الوهاب الإمامة، حيث شهدت الدولة الرستمية حروبا داخلية كبيرة إلى أن توفي. صعوبة تحديد حدود الدولة الرستمية بحيث لا نعرف حدودها الشرقية ولا الغربية ولا الشمالية ولا الجنوبية، وهذا ما يصعب معرفة مقدار الجباية. تهرب السكان من دفع الزكاة، وهو ما يفهم مما كان يفعله أبو يونس وسيم عامل الإمام عبد الوهاب على قنطرارة، إذ كان يصعد إلى"أشرف موضع حيث يسمعه الأقصى والأدنى فينادي بأعلى صوته لا فرار من الصدقة والفار من الصدقة يؤذى ويكرر ذلك"[66]، وهذا دليل على أن بعض الناس كانوا يخفون أموالهم فيضطر الساعي إلى تحليفهم الأيمان. أما عن أموال الجزية فيتم دفعها مرة كل سنة حيث يذكر ابن أبي الفضل أن سبيل "الجوالي[67]أن يفتح في أول يوم من المحرم في كل سنة" بينما يرى ضياء الدين الريس أن أوان دفع الجزية كان"في أخر العام لا في أوله تماما كأموال الزكاة "ويقف"متز موقفا وسطا فيذكر: الجزية تؤخذ مقسطة على ستة أجزاء أو خمسة وذلك لأن عمال المسلمين كانوا يتقاضون منها مرتباتهم"[68].

أما الخراج فلم تشر المصادر إلى كيفية جباية الخراج، ويظهر أن الرستميين وغيرهم واجهوا صعوبات ومشاكل في جبايتها بسبب اختلاف السنة الهجرية عن السنة الجبائية الشمسية إذ ينتج عن هذا الاختلاف أن تنتهي السنة الهجرية ولم يجن المحصول بعد، وبهذا يتأخر موعد جباية الخراج، ولهذا استصعب على المؤرخين تحديد موعد الجباية هل كان يتم شهريا أم سنويا؟

فيدفعها[59]؛ وقد راع الأئمة الرستميون ظروف الناس في التخفيف من الجزية وتقليل المطلوب وإمكان الانتظار؛ والتأجيل، وهي كلها مواقف إنسانية روعيت فيها الظروف الشخصية لدفع الصدقات[60].

كما تجدر الإشارة إلى أن تيهرت لم يكن بها بيت للمال فحسب، وإنما كان إلى جانبها دار تعرف بدار الزكاة[61]، وقد حاول الأستاذ الكعاك تفسير وجود هاتين المؤسستين الماليتين، ودور كل منهما فأتى بمبهم عندما قال: "وغاية العلم أنه كان يوجد ديوان يعرف ببيت المال لقبض الأموال الداخلة، ودار الزكاة لدخول المال وخروجه"[62]، والحقيقة أن ابن الصغير يلاحظ وجود فرق بين الأموال التي تجمع من الزكاة، والأموال التي تجبى من غيرها، ويكمن الفرق في طرق توزيعها وأماكن إنفاقها، كان هذا في عهد عبد الرحمن بن رستم، ولا شك أن هاتين المؤسستين استمرتا مع الدولة الرستمية إلى آخر عهدها، وتشير المصادر إلى أن رجال نفوسة كانوا المسؤولين عن بيت المال في تيهرت[63].

إن ندرة المعلومات عن الجانب الاقتصادي، تحتم على الدارس أن يعتمد على معلومات افتراضية، هذا ما نستشفه من بعض النصوص، ومنه فإن الصعوبات التي واجهت الجباة صعوبة يمكن تحديدها فيما يأتي:

ومن المشاكل التي واجهت السعاة أيضا صعوبة حصر أعداد الماشية، فالأغنام تعود إلى دور أصحابها ليلا، فإن كان النهار غدا بها رعاتها فجمعوها من بيوت أهلها فانطلقوا بها إلى المراعي في حين خروج السعاة[64]، ويذكر هوبكنز نقلا عن الشماخي أن بعض الناس كانوا يخفون أفضل مواشيهم عن السعاة ليقع اختيارهم على ما دون ذلك، وفي الغالب أصحاب المواشي رحل، الأمر الذي يجعلهم بمنأى عن الجباة، وهذا ما كان منتشرا في الدولة الرستمية لأنها منطقة رعوية وشاسعة، وهي تمثل أغلب أراضيها.

يذكر الدرجيني في طبقاته أن ابن ميمون بن عبد الوهاب "خرج ساعيا"[65] يطوف بالناس لجمع الزكاة المستحقة، وطوافه هذا يدل على تقاعس الناس

بيت مالنا خائن"[54]، نستنتج من هذا النص وجود تدهور حال عمال الجباية، فبعدما كانوا يعينون من أفاضل الناس وأورعهم وأكثرهم طاعة أصبح الرعية يصفونهم بالخيانة، هذا الأمر عمل على تطوير نظام الجباية فبعدما كان العمال مراقبين من طرف الخلفاء مباشرة أصبحوا متمردين على السلطة مما سيضطر الخلفاء إلى تغيير أسلوبهم مع العمال من اللين إلى القوة.كان متولي المكوس على باب المدينة يتولى الإشراف على كل صغيرة وكبيرة داخلة وخارجة، وكان التاجر يحمل رخصة تدل على دفعه للمكس يسمح له من خلالها بالمرور، ويوضع اسمه على سجلات خاصة بهذا الشأن[55]، هذا وإن دل فإنما يدل على السياسة المحكمة التي اعتمدتها الدولة في المغرب الأوسط، حيث كانت صارمة في وضع قوانين تحفظ لكل ذي حق حقه لدولة حقها وللتاجر حقه.

كان يراقب الأئمة المشايخ من الإباضية الذين يعرفون بالشراة، فلا يخافون عند ذكر مساوئ الإمام وهفواته، لومة لائم بل لعل الأئمة كانوا هم الذين يراقبون أنفسهم مخافة سخط الشراة[56].

طريقة الجبي: مرت طريقة الجبي بمراحل حيث امتاز الجباة الرستميون بأخلاق عالية في بداية الدولة لأنهم كانوا يختارون من بين أهل الورع والتقوى حتى لا يحيدوا عن الحق؛ وقد تواصل هذا مع الخلفاء الرستميين؛ بحيث لا يطالب الجباة إلا بخير ما يملكه الناس؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "خذ الشارف والبكر وذات العيب ولا تأخذ من حزرات الناس شيئا"[57]؛ أي لا يأخذ إلا الجيد من مال الناس في الصدقة.

وقد روي عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه مرت به غنم الصدقة وفيها شاة ذات ضرع عظيم فقال: ما أعطى هذه أهلها وهم طائعون فلا تغضبوا الناس ولا تأخذوا حزراتهم[58]،وهكذا فقد تقيد الجباة الرستميون فلا يأخذوا في الصدقة الشاة الوالد، ولا التي هي على وجه الولادة، ولا التي تربى للحليب، ولا التي تربى للحم، ولا فحل الغنم إلا أن يتطوع صاحب الغنم

العمال: كان لصاحب بيت المال موظفون يساعدونه يعرفون بالعمال، وكلمة عامل تعني وكيل للسلطات المالية[49]، مع وجود واجبات أخرى، فقد سبقت الإشارة إلى قول اليعقوبي بأن سكان جبل نفوسة لا يؤدون خراجا إلى سلطان ولا يعطون طاعة إلا إلى رئيس . إمام . لهم بتيهرت، وكان الموظف الذي يعينه الإمام الرستمي على جبل نفوسة يدعى"العامل" ويذكر ابن خرداذبة أن قبيلة مزاتة في منطقة سرت "لا يقبلون إلا أوامر تاهرت" وكان العامل يعين من طرف الإمام نفسه[50]، ومن العمال سلام بن عمر اللواتي عامل الإمام عبد الوهاب على سرت، ووكيل بن دراج النفوسي على قفصة، ومحمد بن إسحاق الخزري على نفزاوة، وسلمة بن قطيعة على قابس.

وأضاف الشماخي عاملا من قبل الإمام أفلح كأبي يونس وسيم على قنطرارة وميال بن يوسف على نفزاوة، ويبدو أنه كان للرستميين نفوذ اقتصادي على هذه المناطق، حيث ذكر الوسياني أن الإمام عبد الوهاب اقطع أرضا للخارجين عليه في جبل نفوسة من منطقة الساحل وكتب إليهم: "اغرسوا فيه بأمرنا، واحرثوا فيه بإذننا"[51] إلا أن المؤرخين لا يشيرون إلى العمال في مناطق المغرب الأوسط تابعين للدولة الرستمية، إلا أن القائمين على الجباية كانوا من البربر لأنهم يمثلون عصب الدولة[52].أشرفت نفوسة على تعين صاحب بيت المال حسب ابن الصغير لكنها لم تفعل ذلك مع العمال، إذ أن المناصب المالية هامة وحساسة، فهي بحاجة إلى شخصية قوية الإيمان والإرادة، لا تضعف أمام الأموال المكدسة، فتحدث بعض الاختلاسات مثلما حدث عند الرستميين حيث يذكر ابن الصغير قول مقدمي مزاتة وسدراتة إلى رؤساء قبائلهم وطعنهم في استقامة وأمانة صاحب بيت المال في عهد الإمام عبد الوهاب فقالوا: "صاحب بيت مالنا خائن وإمامنا لا يغير من ذلك شيئا"[53].

حدث هذا التغير على عهد الإمام عبد الوهاب، نظرا لتغير الأوضاع السياسية، إذ تغيرت أخلاق الجباة والمكلفين ببيت المال، مما انعكس سلبا على النظام الجبائي بسبب سياسته التوسعية، إذ قالت الرعية:" وصاحب

الحكومية[44]. كما دخلت بيت المال الرستمي أموال عن طريق الوصايا، فقد كان أبو مرداس مصاهر السدراتي إذا أراد زيارة تيهرت" أخذ الوصايا من أهل الدعوة من أهل الجبل جبل المسلمين نفوسة فيرفعها إلى تاهرت لنفع بيت مال المسلمين ولنفع أرباب الوصايا"[45].

**1-التنظيم الجبائي في الدولة الرستمية**

**1-عمال الجباية:**

صاحب بيت المال: يتولى الإشراف على جباية الأموال وإنفاقها موظف يعرف في العهد الرستمي ب"صاحب بيت المال"، وكانت هذه الأموال تودع في مكان يطلق عليه "بيت المال" أو"بيت مال المسلمين" كما سبق ذكره، ويبدو أن اختصاص صاحب بيت المال كان يشمل جميع الموارد المالية، فابن الصغير يحدد وظائف الدولة في أيدي ثلاثة موظفين هم: صاحب الشرطة، والقاضي، وصاحب بيت المال.

مساعدوه: كان يساعد صاحب بيت المال عدد من الموظفين، حيث ذكر ابن الصغير دار الزكاة وصاحبها وأهلها[46]، وهذا يعني أنها تخضع لإشراف موظف يعمل تحت يده السعاة أو العاملون عليها، هذا الموظف يشرف على جباية الخراج يساعده موظفون يشرفون على كل ما يتعلق بوظيفته، حيث اتسم عامل الزكاة في بداية الدولة الرستمية وعلى عهد عبد الرحمان بن رستم بالنزاهة والإخلاص، فقد كان يجمع الزكاة من أصحاب الأراضي والأنعام بالعدل وفي وقتها، لأن صلاح وزهد الإمام عبد الرحمان أدى إلى صلاح الرعية، فانتشر بين الناس خوف الله وأداء الزكاة في وقتها. وعن عمال الزكاة يقول ابن الصغير: "يقبضون ما يجب من أهل الصدقات لا يظلمون ولا يظلمون"[47]، ومن المرجح أنه كان للخراج ديوان خاص وإن لم يشر المؤرخون إليه، فالإمام عبد الرحمن بن رستم كان يفصل أموال الجزية والخراج عن أموال الزكاة، كما يمكن التكهن بأن جباية الخراج كانت تسند للمشرف على الخراج لأن ابن الصغير يوحي بأن أموال الجزية والخراج كانت تجمع معا وبشكل مستقل عن غيرها من الموارد[48].

كما تنوعت الضرائب غير المشروعة حيث أخذت مسميات عديدة من ذلك القبالة، وهي التزام مقابل أداء عمل، وهي الكفالة[39]، إذ لم تعتمد الدولة الرستمية على هذا النوع من الضرائب بل اعتمدت من طرف الدولة الفاطمية بعدها، وهي تعني الضرائب التي كان يؤديها أهل الحرف أو بائعو السلع الرئيسة[40]، وعلى كل حال ليس هناك معلومات كافية حول هذا الموضوع، ولم يشر المؤرخون إلى مبالغه إلا أنها كانت موردا هاما لبيت المال الرستمي.

لقد سكتت المصادر عن المال الذي دخل بيت مال الرستميين من تركة من مات ولا وارث له؛ فإن ما خلفه من أموال أو عقارات أو ماشية يؤول إلى بيت مال المسلمين عملا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "أنا ولى بكل مؤمن نفسه...من ترك مالا فلورثته؛ وأنا مولى من لا مولى له؛ أرث ماله وأفك عانه"[41]، هذا الحديث الصريح يؤكد بأن النبي صلى الله عليه وسلم هو وارث من لا وارث له وبالتالي، للخليفة ثم لأمير المؤمنين من بعده أو الأمير المكلف بإمارة المؤمنين؛ غير أنه لا يرث المال لنفسه وإنما يصبح المال حقا عاما لجميع المسلمين؛ ويودع ببيت مال المسلمين وينفق في المصلحة العامة.أما المستغلات فهي ضريبة توضع على جميع المنشآت المبنية على الأراضي الحكومية من أسواق وفنادق وطواحين وغيرها، وقد أشار ابن الصغير إلى أن الرستميين شرعوا في "اتخاذ الأرحاء والمستغلات"[42]، لكنه لم يقدم أي إضافات حولها مثل عددها، جبايتها، ملكياتها وغير ذلك فاكتفى بإشارة أخرى إلى أنها كثرت في عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب. ومنه يمكن القول بأن الرستميين قد استفادوا من المستغلات؛ وهي كل المنشآت التي ينشأ عليها الناس الفنادق والمتاجر والحمامات والأسواق وغيرها؛ إلا أننا لا نملك معلومات كثيرة عن هذا الموضوع عدا ما أشار إليه ابن الصغير[43].

أما ديوان المستغلات: ويسمى هذا الديوان بديوان الإيرادات المتنوعة الواردة لخزينة الدولة، ولا يقصد به المال المنقول بل يقصد به مستغلات جميع الموارد التي تعود إلى الدولة من أموال غير منقولة كالأراضي والأبنية

بمدى كثرة أو قلة هذه الواردات إلى بيت المال.فالمكس[32]من بين الضرائب غير المشروعة التي تنشأ عن حاجات وظروف جديدة، وتفرض على التجار، وقد كانت هذه الضريبة تؤخذ في الجاهلية وليست وليدة الإسلام وإنما حافظ عليها أمراء الدولة الإسلامية وهو ما يأخذه العشار من بائعي السلع في العصر الجاهلي، درهم كان يأخذه المصدق بعد فراغه أي الضريبة التي يأخذها الماكس[33]. ويطلق هذا اللفظ على ضرائب الأسواق والأبواب، إلا أن إبراهيم حركات[34]ينبهنا إلى نقطة مهمة تطرح التساؤل التالي: ما مدى مشروعية هذه الضريبة.يبدو أن المكوس كانت تفرض بشكل جماعي على المصنوعات المحلية، والواردات الأجنبية، وعلى كل ما يباع ويشترى، حيث بلغت قيمة المكس التي حددها الفقهاء 10% على التجار المشركين و5% على تجار أهل الذمة و2,5%على التجار المسلمين[35]، إلا أن المصادر لم تشر إلى المبالغ التي كانت تفرض ببلاد المغرب .

لقد ساهمت أموال التجار في تدعيم بيت مال الرستميين، نذكر على سبيل المثال لا الحصر المزاتيون، الذين سكنوا تيهرت فقد أصبحت أموالهم إحدى دعامات الدولة الرستمية ساعدت على تطور النظام الجبائي بزيادة واردات الدولة، وذلك إلى جانب النفوسيين والهواريين وغيرهم، من اللواتيين والمطماطيين والزواغيين أو من الصنهاجيين والزناتيين ممن سكنوا تيهرت؛ هذا دون أن ننسى عددا من أفراد الجماعات التي سكنت تيهرت كالعرب والفرس[36]؛ إلا أنه كانت هناك أسباب دفعت إلى كل هذا الزخم التجاري بتيهرت ولعل من بين أسباب ذلك وجود مدن تجارية كبيرة وأسواق نشطة وهذا ما أدى إلى توسع النشاط التجاري مثل مدينة تنس وسوق إبراهيم وسوق حمزة وقفصة وقابس[37] وهذا ساعد على تعدد الضرائب وتنوعها.

وقد تعددت مداخيل بيت مال المسلمين ومن بينها الركاز، وهو خمس الذهب والفضة التي توجد مدفونة في الأرض، والتي يمتلكها الناس بعدما يجدونها؛ فمن وجد كنزا ليس ملكا لأحد يحوي ذهبا أو فضة أو جواهر أو لباس، فلبيت المال خمسه ولمن غنمه أربعة أخماس[38].

عمل الرستميون بما سنه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب، حيث عملت الدولة الرستمية على أخذ الأعشار من تجار أهل الذمة، إذ يقول ابن الصغير بهذا الصدد "وأهل الصدقة على صدقاتهم يخرجون أعشارهم"[26]، يفهم من هذا أنهم كانوا يجبونها على المحاصيل الزراعية، وإن اختلف العلماء في المحاصيل التي يفرض عليها العشر[27]، وعبارة ابن الصغير لا تدل على نوع الأراضي التي جبى الرستميون عشرها، وإن كان الأرجح أنها أراض أسلم عليها أهلها، وأرض أحياها المسلمون، إذ لم تحدد المصادر التاريخية قيمة ضريبة العشر التي جباها الرستميون إلا أننا نضن أنها قيمة تفرض على أساس النسبة المئوية من قيمة السلعة، ولا تختلف بين السلع إلا على السلع المحرمة في دار الإسلام فإن القيمة تضاعف للحد من دخولها وانتشارها.إذن ضريبة العشر هي ضريبة تفرض على التجار الأجانب لحماية التجارة الداخلية من المنافسة، ومنه يمكن القول أن موقع تيهرت الداخلي قلل نسبة جبي العشر من أهل الذمة في الثغور[28].

استمر الرستميون يجبون العشر على الحاصلات الزراعية حيث يذكر ابن الصغير أن الشراة[29] لم تكن تطعن في أحكام الإمام أفلح: "في شيء من أحكامه ولا في صدقاته ولا أعشاره"[30]، ولم يشر المؤرخون إلى مبلغ هذه الضريبة ولا إلى طريقة جبايتها والأرجح أن الرستميين اتبعوا طريقة المقاسمة في الخراج، لأن فرض مبلغ معين على مساحة معينة دون اعتبار لإنتاجها تبدو ثقيلة على الفلاحين.

إن وجود ضرائب مشروعة حتم ضرورة وجود ضرائب غير مشروعة بالكتاب والسنة إذ عرفت هذه الضرائب بالمال الهلالي لأنها تجبى مع هلال كل شهر قمري[31]، وقد اتسمت بالكثرة والتنوع وعدم الثبات على حال دائم حسب أهواء المسؤولين، فقد شملت أغلب السلع الواردة من الخارج، كما شملت أغلب السلع التي كانت تباع في الأسواق، ولا شك أن هذه المغارم كانت تشكل موردا خصبا للدولة، إلا أنها تسببت في إرهاق الرعية، فكثر الظلم وعمت الشكوى والفتن في الأسواق، إذ أن التطور الجبائي مرتبط

جباية الخراج كانت سنوية بعد انتهاء الناس من جمع محاصيلهم[23]، وغالبا ما يكون في فصل الخريف، كما لا يمكن أن يكون المقدار موحدا فهو خاضع للظروف والمستجدات من سنة لأخرى، فقد يتعرض المحصول لآفات زراعية من جفاف أو انجراف أو نقص في مصادر الري وغيرها. لقد ثبت وجود طائفة من اليهود في بلاد المغرب الإسلامي معروفين بالموالي، اشتهرت بنشاطها التجاري؛ خاصة بعد الفتوحات الإسلامية؛ حيث شكلوا أقلية من أهل الذمة في المجتمع الرستمي يدفعون الجزية، ويعيشون بين الرستميين في ظل الأمان على النفس والمال.

يذكر ابن الصغير أن الإمام عبد الرحمن بن رستم، كان ينظر إلى ما اجتمع من مال الجزية[24]،وهذا دليل على وجود أهل الذمة بالدولة منذ نشأتها، وكلمة ينظر دليل على سعتها حتى لفتت نظر الإمام عبد الرحمن، غير أن ابن الصغير لم يذكر لنا مبلغ الجزية، ولا عدد أهل الذمة، إلا أنها شكلت موردا شرعيا يضاف إلى قائمة الموارد المالية للدولة الرستمية.كما عملت الدولة الإسلامية على فتح البلاد، فبدأت عملية الفتح بالدعوة للدين باللين أولا فإن لم يستجب أهل البلاد فلا حد بينهم إلا السيف، فعند فتح البلاد يغنم المسلمون، وهي كل مال وصل إلى المسلمين عن طريق الغلبة والقوة؛ إذ تشتمل الغنيمة أربعة أقسام[25]: أسرى، سبي، أراضي، أموال، والراجح أنها لم تشكل موردا أساسيا في الدولة الرستمية لأن سياستها مع جيرانها كانت سلمية؛ زيادة على أن الأئمة الرستميين كانوا يتعففون من أخذ غنائم جيرانهم بعد الاشتباك، وهذا دليل على أنهم لم يأخذوا الغنائم كلها إلا ما وجب لبيت المال، ولا نظن أنه قدر كبير من المال. تختلف الحاجة إلى المال باختلاف الدول وسياستها، فحاجة الدولة الرستمية كدولة داخلية، ليست لها سياسة توسعية ولا تقوم بالجهاد، تختلف عن دولة أخرى لها أهداف توسعية على حساب جيرانها، وتخوض المعارك، وبهذا تتنوع موارد الدولة بحسب حاجتها فقد تكتفي بالموارد الشرعية، وقد تضطر إلى أن تجبي الأموال من موارد أخرى.

لقد ورد في بعض النصوص أن عبد الرحمن بن رستم عند بنائه لمدينة تيهرت اختار أرضا لأناس مستضعفين ينتمون إلى قبيلتي مراسة وصنهاجة فطلب منهم بيع هذه الأراضي لكنهم رفضوا طلبه؛ فعرض عليهم بأن يدفع لهم الخراج من الأسواق[14]؛ ومنه يتبين أنهم رفضوا التنازل عن ملكية الأرض وقبلوا تأجيرها[15]. كما هو معلوم لدينا أن المصادر الإباضية أهملت موضوع الأراضي الخراجية هذا الموضوع الحساس ولم تشر إلى تفاصيله؛ إلا أن التساؤلات تبقى تطرح نفسها هل وضع عبد الرحمن بن رستم الخراج على أراضي المسلمين فقط؟ أم أنه وضعه على أراضي المسلمين المخالفين؟ أم هل جباه من أهل الذمة الذين كانوا بتيهرت وحدهم بدليل أن ابن الصغير ربط بين الخراج والجزية؟ فمن المرجح أنه لم يكن يقصد بكلمة الخراج العشر لأنه استعمل كلمة الأعشار في موضع آخر مما يدل على أنه كان يدرك كل الإدراك الفرق بين اللفظتين.أما بعد حكم عبد الرحمن بن رستم لم يذكر ابن الصغير كلمة الخراج، لكن هذا لا ينفي استمرار الرستميين في جباية هذا المورد، والمرجح أنهم اتخذوا نظام المقاسمة أي أن لهم حصة معلومة من الإنتاج، فسعاة الإمام كانوا ممن لا يظلمون ولا يظلمون[16]، وبالتالي يمكن القول أن كلمة مقاسمة استعملت بعد ذلك بدل كلمة الخراج.يفرض الخراج على الأرض التي صولح عليها المشركون[17]، وهي مقدار معين من حاصلاتهم الزراعية أو من أموالهم[18]، وما دام مقدار الخراج هو اجتهاد وقد حدد عمر(رضي الله عنه) قيمته بما يناسب وضع دولته "على الجريب قفيز ودرعم[19]، وعلى النخل والرطاب والكرم والشجر...فإن احتملوا أكثر من ذلك فلا يزاد عليهم وإن عجزوا عن ذلك خفف عنهم ولا يكلفون فوق طاقتهم"[20].

وإن كان هذا اجتهاد عمر في زمانه فليس لدينا أي معلومات عن المبلغ الذي أخذه الرستميون على الأراضي الخراجية ولا الطريقة التي أخذ بها[21] حتى ابن الصغير أثناء إشارته لهذا الموضوع لم يوضح لنا الأمر حيث قال: "وأهل الصدقة على صدقاتهم يخرجون في أوان الطعام؛ فيقبضون أعشارهم في هلال كل... "[22]. هذا النص لا يوضح لنا المطلوب عن الخراج؛ لكننا نرجح أن

يبيب بن زلغين مثلا: "إذا جاءه العامل وقت الصدقة، قال للرعاة: اختاروا خيار الإبل، فغيبوها ويأمر العامل بأخذها"[10].

على أية حال، فإن المصادر لا تذكر شيئا عن مبالغ الزكاة والصدقات التي جمعت في بلاد المغرب الأوسط، ولو لعام واحد، أو لمنطقة واحدة، كما لم تذكر مبلغ كل باب من أبواب إنفاقها، ولم تصل إلينا سجلات دار الزكاة التي ذكرها ابن الصغير في تاهرت، وإلا لسدت فراغا واسعا في مجال الجباية عموما والزكاة خصوصا.

إن توفر الذهب يعطينا تصور عن كثرة زكاة الحلي، ومدى مساهمتها في تغذية دار الزكاة، فضلا عن الثروة الذهبية النقدية السائلة، حيث كان إباضية سجلماسة كما يقول ابن الصغير يبعثون بزكاة أموالهم إلى تيهرت لينتفع بها إخوانهم هناك[11]، وهي بذلك تشكل موردا آخر لدار الزكاة خارجا عن حدود الدولة الرستمية.

لقد ساهمت النساء الإباضيات في تمويل دار الزكاة، بما كن يدفعن من زكاة على حليهن من فضة وذهب وخاصة أن هذه الفترة كانت تتدفق على تيهرت أموال كثيرة نتيجة اشتغال أهلها بالتجارة مع السودان الغربي بصفة خاصة؛ وهو موطن الذهب ومصدره الأساس[12]، ولكن المعروف عن زكاة الحلي المعني به المخصص للتجارة، وهذا يعني أن المجتمع التاهرتي ضم نساء ثريات لدرجة أنهن كن يمارسن تجارة الذهب، وبهذا الشكل امتلأت دور المال بمختلف الموارد المالية، غير أن المصادر لم تشر إلى مبالغ الزكاة والصدقة التي كانت تدخل بيت المال.كما يعتبر الخراج أيضا من أهم وأثبت الموارد المالية لبيت مال المسلمين، وهو مصطلح مالي يقصد به تلك الضريبة المفروضة على الأرض الزراعية، فقد اختلفت القوانين بين الأراضي الصلحية والأراضي العنوية[13]، وإذا كان موضوعهما واضحا ببلاد المشرق فهي على العكس من ذلك ببلاد المغرب؛ هل فتحت أراضي بلاد المغرب صلحا أم عنوة؟

رستم[1] دور كبير في إعجاب الرسل بأخلاقه وحسن تدبيره[2]، الأمر الذي جعل الإباضية بالمشرق يدعمونه لبناء دولته وتثبيت دعائمها فكان له ذلك حيث أنشأ دولة قوية في بلاد المغرب يقصدها العلماء والتجار، وبهذا تنوعت وازدادت ونمت عائدات بيت المال الرستمي.

اهتم الرستميون بالزكاة كأول مورد شرعي لبيت المال فخصصوا لها دارا عرفت بـ: "دارالزكاة" إذ كان هناك إقبال من الإباضية على دفعها، فلم يذكر لنا ابن الصغير تعسر الناس في دفع زكاتهم بل قال: "وأهل الصدقة على صدقاتهم يخرجون في أوان الطعام فيقبضون أعشارهم في هلال كل..."[3] هذا عن الأرض، أما فيما يخص زكاة الأنعام من الشياه والبعير فكانت تخرج في أوانها بعد كل حول، حيث يرى الإباضيون أن الزكاة واجبة في أنواع من المزروعات وهي: الحنطة والشعير والتمر والزبيب والذرة والسلت[4]، "حتى كان الإباضية بسجلماسة يبعثون إليه- أي الإمام أبي اليقضان- بزكاتهم يصرفها حيث شاء"[5]، إلا أن هناك من يرفض دفعها لهم خاصة المخالفين من النكارية[6] وغيرهم. ومنه فإن الزكاة كانت كبيرة لدرجة تخصيص دار لها وتوظيف عمال لهذه الدار، وهذا يدل على عظم ما كان يدخل إلى بيت المال من أموال الزكاة، الأمر الذي اضطر بأئمة الإباضية إلى فصل الدارين عن بعض.

تميزت الدولة الرستمية بطابعها التجاري، وازدهار الزراعة حيث شكل الذهب المجلوب من السودان، من الأمور التي زادت في كمية الزكاة ومما يعلل هذا قول الإمام عبد الوهاب: "لولا أنا ومحمد بن جرنى ويبيب بن زلغين[7] لخرب بيت مال المسلمين: أنا بالذهب ومحمد بن جرنى بالحرث وابن زلغين بالأنعام"[8]، فهذه المقولة توضح أهمية مورد الزكاة بالنسبة لدار الزكاة وإن كان نص الشماخي يوظف لفظة بيت المال بدلا من دار الزكاة ولا نشك أن عبد الوهاب، إنما ذكر ما ذكر لعظم ثروته الذهبية، وعظم ثروة ابن جرني وابن زلغين حتى وكأن دار الزكاة لا يمولها إلا هؤلاء الثلاثة[9]، فقد كان

contented themselves with legitimate rights and with only a little convulsory taxes and they committed themselves to spend them in legal ways without any abuse. This policy, consequently, enabled the state to remain strong and compete against the other states as far as Tahart became an economic and cultural center for scholars and merchants as well.

However, conflicts and anarchy weakened the fund of the state and hence mess took place and people refused to pay their taxes because of the accumulation of debts. Thus, the major causes the collapsed the Rustamid state and dominated by the Fatimian were the taxation regression and the diminution of the economy.

**-مقدمة:**

لقد شكل نظام الجباية موضوعا مهما في النظام المالي الإسلامي، فقد أمر الله بتحصيل الأموال وقرر أنها قوام الناس، وعصب لحياتهم، وجعل السعي في تحصيلها بالطرق المشروعة كالزراعة، والصناعة، والتجارة، كما أمر بحفظها ونهى عن تبذيرها، وحارب الترف والبذخ في القائمين عليها، بما لا يعود على الأمة بخير، وجعل للحكام الحق في الوقوف بالمرصاد للمسرفين المبذرين لها.وانطلاقا من هذه المبادئ السامية، نجد أن النظام المالي من أهم الأنظمة في جهاز أي دولة وأكثرها حيوية قديما وحديثا، وذلك نظرا للدور الهام الذي يلعبه المال في قوة سلطة الدولة وضعفها من عدة جوانب، من حيث تجنيد الجيش وتجهيزه، وتسليحه، ودفع مرتباته، وكذلك القيام بمختلف المشاريع الأخرى دينية وصحية، وتعليمية، واجتماعية، واقتصادية، كما أن أهم ما في النظام المالي هو الضرائب، التي ازدادت وتنوعت بتنوع الحاجات الاجتماعية في الدولة، فمن المعروف أن أهم واردات الدولة هي: الزكاة، والخراج، والغنيمة، والفيء، والعشر، والمكوس وفيها جميعا معنى الضريبة التي تكون الجباية.

كانت البداية المالية للدولة الرستمية مشرقية، فبعد ظهور هذه الدولة في المغرب وانتشار أخبارها مغربا ومشرقا وخاصة السيرة الطيبة لحكامها، عزم الإباضيون بالمشرق على مساعدة الدولة الفتية لتقويتها وتثبيتها، وتمثلت المساعدة في ثلاثة أحمال من المال، وقد كان لحسن تصرف عبد الرحمان بن

# واقع الجبايـــة بالدولة الرستميـــة

أ.ة سميرة مغراوي*

-الملخص:

لقد كان للظروف السياسية دورا كبيرا في التأثير على الجباية بالنسبة للدولة الرستمية، فقد كانت البداية المالية لهذه الدولة مشرقية، فبعد ظهورها في المغرب وانتشار أخبارها مغربا ومشرقا وخاصة السيرة الطيبة لحكامها، عزم الإباضيون بالمشرق على مساعدة الدولة الفتية لتقويتها وتثبيتها. فانتعش الرستميون بالأموال التي بعثها إباضية المشرق في السنوات الأولى من حكمهم، ودعمت بيت مالهم، كما أنهم أسسوا لنظام جباية محكم بعد ذلك قائم على جمع الضرائب، فاكتفوا بالحقوق الشرعية دون غيرها مع بعض الرسوم الواجبة والتزموا بصرفها في وجوهها الشرعية أيضا، دون أن يأخذوا منها شيئا ليس من حقهم، الأمر الذي مكن الدولة من الاستمرار بقوة أمام منافسيها من الدول حتى أصبحت تاهرت قبلة للعلماء والتجار، إلا أن الفتن والمنازعات أرهقت بيت المال، فاتسمت الجباية بعد ذلك بالعنف وسوء المعاملة من قبل الجباة بسبب رفض الناس دفع المغارم نظرا لكثرتها وتعددها، إذ أن من أسباب سقوط الدولة الرستمية على يد الفاطميين، تراجع الجباية في أواخر الدولة وتدهور الأوضاع الاقتصادية، والسياسية والأمنية للدولة.

**Abstract:**

The financial beginning of the Rustamid state was due to the political circumstance. At first ,the finance came from the East. After its appearance in the north of Africa and its news disclosure throughout the world, and the good reputation of its rulers, the Alibadion of the East determined to assist and strong then the emergent state.

Receiving money from the Alibadian within the earlier years of their governance, the Rustamid revived as well as their funds. They established strict taxation structure based on taxes collection they

* طالبة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية، جامعة وهران 1، الجزائر.

68.عبد الهادي التازي، المرجع السابق،ج7، ص 26.

69.الزركشي، المصدر السابق، ص 78.

70.عبد الهادي التازي، ج7، المرجع السابق، ص25./ولد خسال، المرجع السابق، ص333.

71.ابن قنفذ، المصدر السابق، ص 174، 175 .

72.نشاط مصطفى-المرجع السابق،- ص 58.

73.ابن مرزوق محمد التلمساني، المناقب المرزوقية- دراسة وتحقيق سلوى الزاهر- منشورات وزراة الأوقاف والشؤون الإسلامية- مطبعة النجاح- الدار البيضاء- ط1- 2008،-ص307.

74.نشاط مصطفى- المرجع السابق،-ص 58.

75.الزركشي-المصدر السابق- ص83.

76.أبو العباس الغماري: وهو أحمد بن عيسى عبد الرحمن الغماري وكان له لسان يستزل له العصم كان جادا طلبا مناصبا للامراء ومناصبا لهم وسيوسا مع ذلك لهم، وكان قاضيا بذات العلمية وولي المنصب مع ذلك في بلاده وفي بجاية كرتين وتوجه رسولا الى ملك المغرب مرارا من المستنصر بالله ومازال ناجح اسعي سديد الرأي وكان سريع البديهة بالجواب بطبق المفصل بموافقة الصواب. أبو العباس الغبريني- عنوان الدراية،-ص 46-45.

77.عبد الهادي التازي- ج7،-المرجع السابق- ص24.

78.الحسن الشاهدي- أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني- منشورات عكاظ- ج1- د-ت- ص 100.

79.عبد العزيز الفيلالي -تلمسان في العهد الزياني -دار موفم للنشر- الجزائر-ج2 -2007 -ص330.

80. المقري التلمساني- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب- تحقيق إحسان عباس،دار صادر، بيروت -1968-ج5،- ص246.

81.ابن مرزوق-المسند- المصدر السابق- ص53-54.

52.أبو زيد عبد الرحمان بن محمد وأبو موسى عيسى: المشهورين ببني الإمام الخطيب أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن الإمام التنسي البرشكي رحلا في شبابهما إلى تونس فأخذوا العلم عن جماعة من العلماء أمثال ابن العطار والبطروني وسافرا إلى المشرق في حدود 720هـ/1320م وكان يذهبان إلى الاجتهاد وترك التقليد وأخذ عنهم عدد من الأئمة كالشريف التلمساني والمقري والخطيب ابن مرزوق الجد. ينظر: التنبكتي- المصدر السابق- ص245./ المقري- نفح الطيب- ج5-ص 215./ يحي بن خلدون- بغية الرواد، ج1، المصدر السابق- ص130./ابن مريم- البستان-المصدر السابق- ص222- 229.

53.يحي بن خلدون- بغية الرواد- ج2- المصدر السابق- ص125.

54.المصدر نفسه-ص287-288.

55.ابن مريم- البستان- المصدر السابق- ص252.

56.عبد العزيز الفيلالي -تلمسان في العهد الزياني -ج2-دار موفم للنشر- الجزائر-ج2 -2007 -ص330.

57.ابن قنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم، محمد الشاذلي النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، تونس، 1968. ص132.

58.الزركشي، المصدر السابق، ص150

59.مجهول، زهر البستان، ج2،ص258.

60.المصدر نفسه، ص259.

61.أبو تاشفين عبد الرحمن الأول:هو ابن السلطان أبو حمو موسى الأول، بويع له بالحكم بعد مقتل والده سنة718هـ/1318م، في عهده عرفت الدولة العبد الوادية أوج ازدهارها، فنشطت فيها الفنون والصناعات، واتسع العمران، كانت سياسته ترمي إلى متابعة التوسع في الناحية الشرقية، قتل من طرف أبو الحسن المريني أثناء دخوله تلمسان سنة 737هـ/1336م، ينظر: التنسي، المصدر السابق، 141-148.

62.أبو عبد الله محمد النفزاوي: ذكر ابن بطوطة بأنه أثناء طريق العودة إلى تونس أصابه مرض توفي به في اليوم الرابع عشر من مرضه، وقاموا بدفنه في مليانة، ابن بطوطة محمد عبد الله، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج1، تقديم محمد السويدي، دار موفم للنشر، الجزائر، 2011، ص15.

63.المصدر نفسه، ص15.

64.ابن مرزوق: المسند، المصدر السابق، ص 253، 254.

65.أبو بكر بن زكريا: هو أبو بكر بن أبي زكريا بن إسحاق ولد سنة 692هـ/1292م، كان مكنى بالمتوكل على الله، كانت بينه وبين بني عبد الواد حروب كثيرة، وربط علاقات قوية عن طريق المصاهرة مع المرينيين، توفي سنة747هـ/1346م. ينظر: ابن الشماع، المصدر السابق، ص 87-91./ الزركشي، المصدر السابق، ص 66-87.

66.إبراهيم بن أبي حاتم العزفي: من عائلة العزفيين التي حكمت ثغر سبتة وهو من أعيان القرن الثامن الهجري، 14م، عبد الهادي التازي، المرجع السابق،ج7، ص25/ ولد خسال سليمان، المرجع السابق، ص333.

67.ولد خسال سليمان، المرجع السابق، ص333.

ينظر: ابن مريم- البستان- المصدر السابق- ص306-316./ المقري- نفح الطيب- المصدر السابق- ج5- ص 390./ ابن خلدون - العبر، ج7-ص 527-532 ./ التنبكتي- المصدر السابق- ص584.

37. السلطان أبو سعيد: تولى السلطان أبو سعيد وأخوه أبو ثابت الحكم من سنة 749هـ/1349م إلى سنة 755هـ/1352م . ينظر محمد بن عبد الله التنسي، تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدرر والعقيان في بيان شرف بني زيان- تحقيق محمود آغا بوعياد- دار موفم للنشر- الجزائر- 2011- ص150-155.

38.ابن مرزوق محمد- المناقب المرزوقية- دراسة وتحقيق سلوى الزاهري- منشورات وزراة الأوقاف والشؤون الإسلامية- مطبعة النجاح- الدار البيضاء ط1-2008- ص307.

39.التنبكتي- المصدر السابق- ص451./ ابن مريم- المصدر السابق- ص308.

40.ابن مرزوق محمد- المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن- دراسة وتحقيق مريا دي خيسوس دي بيغيرا تقديم محمود بو عياد- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع- الجزائر-1918- ص497.

41.سليمان ولد سخال- المرجع السابق- ص331.

42.السلطان أبو سالم: هو إبراهيم بن أبي الحسن، يكنى بأبي سالم، لقبه المستعين ولد عام 735هـ/1334م، بويع عام 760هـ/1358م، وكانت دولته سنتين وثلاثة أشهر وأربعة أيام. ابن الأحمر أبو الوليد- روضة النسرين- المصدر السابق- ص30.

43.مجهول- زهر البستان-ج2-المصدر السابق-ص 135- 136.

44.المصدر نفسه، ص136.

45.أبو زيان محمد بن يعقوب: وهو الواثق بالله محمد بن أبي الفضل بن أبي الحسن، يكنى أبا زيان، بويع سنة 788هـ/1386م، وخلع عام 789هـ/1387م، وقتل بطنجة وبها دفن وله 38سنة وكانت دولته 10أشهر. أبو ابن الأحمر أبو الوليد- روضة النسرين- المصدر السابق- ص37- 38.

46.مجهول-زهر البستان-ج2- المصدر السابق- ص182/ يحي بن خلدون- بغية الرواد- ج2- المصدر السابق- ص98-99.

47.أبو سالم البرجي: الكاتب القاضي أبو القاسم محمد بن يحي البرجي، وهو من برجة الأندلس كان كاتب السلطان أبي عنان، وصاحب الإنشاء والسر في دولته وكان مختصا به، برز في النظم والنثر، عالم في الإقدام على الخلفاء، ممن تقدمت له الخدمة مع الاعيان والشرفاء. ابن خلدون- العبر-ج7-ص537-538./مجهول- زهر البستان- ج2-المصدر السابق- ص182.

48.أبو عبد الله الشريف الحسني: وهو أبو عبد الشريف محمد بن أحمد الشريف الحسني، ينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن علي بن أبي طالب ويعرف بالعلوي نسبة إلى قرية من أعمال تلمسان، ولد سنة 710هـ/1310م. نشأ بتلمسان وقرأ القرآن وتفقه على خيرة علماءها من أمثال ابني الإمام وأبا عبد الله الآبلي، وصفه ابن خلدون بأنه فارس المعقول والمنقول، وصاحب الفروع والأصول توفي سنة 771هـ/1388م. التنبكتي – المصدر السابق- ص589./ابن خلدون-العبر-ج7-ص536-537.

49.مجهول- زهر البستان- ج2- المصدر السابق -ص185-186.

50. المصدر نفسه، ص207.

51.يحي بن خلدون، المصدر السابق، ج2، ص159

24.المصدر نفسه- ص14.

25.مجهول-زهر البستان في دولة بني زيان- تحقيق وتقديم عبد الحميد حاجيات- عالم المعرفة للنشر والتوزيع-الجزائر-2011ج2- ص135-136.

26.المصدر نفسه- ص135-136.

27.سليمان ولد خسال- المرجع السابق- ص375.

28.الجويني أبو المعالي- غياث الأمم في التياث الظلم- تحقيق مصطفى حلمي ومحمد فؤاد عبد المنعم- دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع- الإسكندرية -1989-ص274-275.

29.أبو حامد الغزالي- تحقيق سيد بن عمران- دار الحديث- القاهرة-د-ت-ص264.

30.أبو بكر بن محمد الطرطوشي- سراج الملوك- حققه محمد فتحي أبو بكر- تقديم شوقي ضيف- مج1- دار المصرية اللبنانية- مصر- 1999-ص 216-217.

31.السلطان أبو عنان: وهو بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق يكنى بأبي عنان، لقبه المتوكل على الله بويع في تلمسان في حياة أبيه سنة 749هـ/1348م مات مقتولا سنة759هـ/1357م. ابن الأحمر أبو الوليد، روضة النسرين- المصدر السابق- ص27. /الناصري- الاستقصا- المرجع السابق-ج3 - ص181- 182.

32.أبو عبد الله المقري: محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر بن عبد الرحمن القرشي المقري التلمساني، من أكابر فقهاء المالكي في وقته، ولد ونشأ بتلمسان رحل إلى المشرق وحج وأخذ من علماء مصر ومكة والمدينة ودمشق وبيت المقدس وعاد إلى بلده وتولى خطة القضاء في الدولة المرينية على عهد أبو عنان ولإبن مرزوق الحفيد كتاب في سيرته سماه النور البدري في التعريف بالمقري. ينظر يحي بن خلدون- بغية الرواد- ج1- ص121./ التنبكتي- المصدر السابق- ص420./ الكتاني محمد بن جعفر- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس- الجزء الثالث- تحقيق شريف محمد حمزة بن علي الكتاني-ص342/ أبو الأجفان محمد- الإمام أبو عبد الله محمد المقري التلمساني- الدار العربية للكتاب- ليبيا- 1988- ص23 -24.

33.التنبكتي- المصدر السابق- ص 421 .

34.السلطان أبو الحسن المريني: هو السلطان المريني علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق الملقب يكنى بأبي الحسن يلقب بالمنصور بالله، بويع بعد أبيه سنة 731هـ/1330م، كان ضخم الملك، متسع السلطان، ملك تلسمان، وتونس وسائر بلاد افريقية، ومات عام 752هـ/1351م ودفن بشالة. ابن الأحمر أبو الوليد- روضة النسرين- المصدر السابق-ص25-26./ ابن مرزوق- المسند- المصدر السابق- ص 125-126. /الناصري -الإستقصا -ج3- المرجع السابق-ص 153-154 .

35.نبيل شريخي-المرجع السابق- ص78.

36.ابن مرزوق الخطيب: هو محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن محمد بن مرزوق الخطيب، كان يلقب بشمس الدين ويعرف بالخطيب الأكبر والجد والرئيس، رافق أباه في سفره لأداء فريضة الحج وهناك زار أكبر مدن المشرق ( المدينة، مكة، القدس، دمشق، الإسكندرية، القاهرة...) عاد بعدها إلى تلمسان قبل تسعة أيام من فتحها من طرف أبو الحسن المريني فدخل في خدمته وأصبح من المقربين

الرحمن حاجيات- ج1- أعلام المعرفة للنشر والتوزيع -الجزائر-ج1-2011-ص151/ نبيل شريخي - المرجع السابق- ص112.

13.أبو يعقوب المريني: هو الأمير يوسف بن يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن ابي بكر ولد سنة642هـ/1244م، يكنى بابي يعقوب وتلقب بالناصر لدين لله، كان عهده عهد استقرار للدولة المرينية وتمكن من أن يوسع من حدود المغرب الأقصى ويخضع المغرب الأوسط وضرب حصار طويل على تلمسان، توفي مقتولا سنة 706هـ/1306م. ينظر: ابن الأحمر أبو الوليد- روضة النسرين في دولة بني مرين- مطبوعات القصر الملكي- المطبعة الملكية- المغرب-1962- ص 21/ عبد الرحمن بن خلدون- العبر-ج7- ص125- 130/ الناصري أبو العباس- الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى- تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري- ج3 -دار الكتاب- المغرب- 1997-ص66- 86. /ينظر: نظال مؤيد مال الله عزيز الأعرجي-الدولة المرينية على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني685هـ-706م/1286-1306م- رسالة ماجستير غير منشورة -جامعة الموصل -العراق -2004- ص16- 18.

14.صابرة خطيف- فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية- دار جسور للنشر والتوزيع- الجزائر- 2011- ص162.

15.أبو محمد الحباك: الفقيه القاضي الرئيس أبو محمد عبدون بن محمد الحباك، فقيه وخطيب، حاجب الأمير أبي يحي يغمراسن بن زيان، وكان ذا رأي سديد وسياسة. يحي بن خلدون-ج1- المصدر السابق- ص163.

16.ابن مرزوق الخطيب: هو محمد بن احمد بن محمد بن محمد بن مرزوق الخطيب شمس الدين المشهور بالجد وبالخطيب، شارح الشفاء والعمدة في الحديث، نشأ في تلمسان ولد عام 710هـ/1310، قام بعدة رحلات إلى المشرق وأخذ عن شيوخها، اتصل بأبي الحسن المريني وتولى خدمته وكذلك تولى الخطبة بجامع الحمراء بغرناطة، توفي مقتولا فاتح عام 776هـ/1379م، أما ابن خلدون فيذكر أنه توفي في 781هـ/ 1379م. /ابن مريم المليتي، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية- مكتبة الرشاد للطباعة والنشر- الجزائر- 2011- ص306-ص316./ التنبكتي أحمد بابا- نيل الابتهاج بتطريز الديباج- إشراف وتقديم- عبد الحميد عبد الله الهرامة وضع هوامشه وفهارسه طلاب كلية الدعوة الإسلامية- منشورات كلية الدعوة الإسلامية- طرابلس- ليبيا- ط1- 1989- ص450-455./ابن خلدون- العبر-ج7- ص 528 -532.

17.أبو حمو موسى الثاني- المصدر السابق- ص186.

18.ابن الفراء- المصدر السابق - ص33.

19.ابن رضوان المالقي- الشهب اللامعة في السياسة النافعة- تحقيق علي سامي النشار- دار الثقافة- الدار البيضاء- المغرب- ط1- 1984-ص 346.

20.سليمان ولد خسال- المرجع السابق-ص374

21.القلقشندي أبو العباس- صبح الأعشى في صناعة الإنشا- دار الكتب المصرية- مصر-1992-ج 14- ص5.

22.المصدر نفسه-ج14 -8.

23.المصدر نفسه- ص8.

لطباعة والنشر- 1979م- ج3 -ص82. النووي أبو زكريا- تهذيب الأسماء واللغات- دار الكتب العلمية- بيروت- ج1-ص149/ عثمان بن جمعة ضميرية -السفارة والسفراء في الإسلام- د- ن- 2000- ص27/ قاسم خضير عباس- المبادئ الأولية في القانون الدبلوماسي- دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- ط1-2009 -ص17-18. هدى محمدي السيد عبد الفتاح، معجم مصطلحات الحرف والفنون في كتاب تخريج الدلالات السمعية للخزاعي- ط1 -دار بلنسية للنشر والتوزيع - مصر- ط1-12008- ص91.

2. ابن منظور جمال الدين- لسان العرب - تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون-دار المعارف - مصر- د- ت-مج1 -ج23 -ص2025-2026.

3. إيمان بنت دخيل الله- المرجع السابق- ص63.

4. نبيل شريخي- دور علماء تلمسان في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي خلال القرنين الثامن والتاسع(14و15م)- رسالة ماجستير غير منشورة، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة- الجزائر-2009-2010 -ص116.

5. محمود شيت خطاب- سفراء النبي صلى الله عليه وسلم- مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع- لبنان- دار الأندلس الخضراء- جدة-ط1- ج2 - 1996، ص278.

6. سورة التوبة- الآية 119.

7. سورة البقرة-الآية 44.

8. ابن رضوان: وهو أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان البحاري أصله من الأندلس، ونشأ بمالقة، وأخذ عن مشيختها وجدهم الصالح رضوان بن يوسف والد الخطيب القاضي الكاتب أبي القاسم عبد الله شيخ ابن الخطيب وغيره وتوفي بمدينة أنفا من العدوة سنة 782هـ/1350م وقد حذق في العربية والأدب، وتفنن في العلوم ونظم ونثر، وكان مجيدا الترسيل، ومحسنا في كتابة الوثائق وارتحل بعد واقعة طريف ونزل سبتة ولقي بها السلطان أبا الحسن، وانفرد ابن رضوان بالكتابة له. ابن الأحمر إسماعيل- بيوتات فاس الكبرى- دار المنصور للطباعة والوراقة- الرباط- 1972- ص70/ عبد الرحمن بن خلدون- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر- ج7- ضبط المتن والحواشي خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار- دار الفكر- بيروت -2000-ص 523 - 524-525.

9. أبو حمو موسى الثاني- واسطة السلوك في سياسة الملوك- تقديم عبد الرحمن عون- منشورات بونة للبحوث والدراسات- الجزائر- 2011، ص186 .

10.الماوردي- نصيحة الملوك- تحقيق خضر محمد خضر- مكتبة الفلاح-د-ن -ط1- 1983- ص276.

11.ابن الفراء أبي علي الحسين- رسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة- تحقيق صلاح الدين المنجد- دار الكتاب الجديد- لبنان- ط3- 1993- ص36.

12.أبو الحسن علي بن يخلف التنسي: من كبار العلماء العاملين، معظم عند الملوك، والعامة ذو ورع شديد، وتصرف في الرسالة بين ملوك المغرب والمشرق فانجرت بها إليه التهمة من ملوك تلمسان أيام الحصار الأول فخرج إلى السلطان أبي يعقوب ملك المغرب فبالغ في بره واحتفائه إلى أن مات، وقبره بالعباد. يحي بن ابن خلدون- بغية الرواد في ذكر ملوك من بني عبد الواد- تقديم وتحقيق وتعليق عبد

لأن يعرض على الأمير أبي عبد الله الأمير أبي زكرياء يحي ابن السلطان أمير المؤمنين أبي يحي أبي بكر ما أمرنا بإنهائه إليه، فوصلنا بجاية وكان بيننا وبينه من الحديث ما كان عرض لنا فقهاؤها وصلحاؤه"[80]، وقد بلغ اهتمام السلاطين بالعلماء أن أرسل السلطان أبو عنان سفارة من أجل إحضار الآبلي، وخلال قدومه إلى فاس" مر ببجاية ودخلها، وأقام بها شهرا، حتى قرأ عليه طلبة العلم بها مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه برغبتهم في ذلك ومن صاحب الأسطول"[81].

**-خاتمة:**

نستنتج من خلال ما سبق أن أغلب السفارات كانت من نصيب العلماء والفقهاء بحكم تأثيرهم العاطفي، وإقناعهم المنطقي، كما أن التمثيل الذي يقوم به السفير لشخص مرسله أحد أهم الإعتبارات التي دفعت السلاطين لتقديم العلماء والفقهاء في سفارتهم؛ لأن السفير يعد ممثلا ويفاوض بالنيابة عنه. وبناء على ذلك فإن ما يحمله السفير من فضل يعود إلى من أرسله وينسب اليه، مما يعكس كفاءتهم في الجانب الدبلوماسي وقد تجلى دورهم في إبرامهم لشروط الصلح والمعاهدات التي كانت تحت إشرافهم، كما انعكست هذه السفارات على الجانب الثقافي لهذه الدول من خلال تبادل المؤلفات وحلقات العلم التي كان يعقدها العلماء فساهم ذلك في تنشيط الحركة العلمية بين حواضر هذه الدول الثلاث تونس، فاس، تلمسان.

**-الهوامش:**

1. السفارة: وردت عدة تعريفات لمصطلح السفارة، وهي تتفق جلها على أنها يراد بها إرسال شخص معتمد لأداء مهمة.وهي تؤدي معني الدبلوماسية حاليا، مصطلح السفارة وقد تأتي بمعنى الرسول والموفد والبعثة والبريد، وهي تستعمل بمعنى واحد وتؤدي غرضا واحد، كما أنها مصطلحات عربية أصيلة ليس فيها شيء من العجمة ما عدا كلمة بريد، وهي تؤدي معنى الدبلوماسية وأدخلت في لغتنا حديثا تأثرا بالمصطلحات الأجنبية، ولم يكن المسلمون بحاجة إلى هذه اللفظة لوجود بديل عنها وهو الأمر نفسه مع السفارات التي استخدمت في المغرب الإسلامي فقد استعملوا السفير والمبعوث والموفد لتأدية الرسالة الموكل عليها، ولنجاح سفرائهم تخيروا أفضل السفراء ينظر: ابن فارس أحمد بن الحسن- معجم مقاييس اللغة- تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون -المجمع العلمي العربي الإسلامي- دار الفكر

أن ابن مرزوق كان مطلعا على مكانها مما آثار حفيظة أبي عنان عليه[74]. والظاهر أن أم الأميرة هربتها، ولم يكن لابن مرزوق أي يد في ذلك، فلما اتصل بأمها قالت له حسب ما ذكر الزركشي: "غدا إن شاء الله يكون الحديث بمحضر القاضي وغيره، فرجع إليها من الغد، فاختفت عنه وجد الطلب عليها فلم يجدها"[75].

**ثالثا: سفارات من أجل تبادل الهدايا والتعزية**

بعد وفاة السلطان المستنصر، استمر السلطان أبو زكريا الملقب بالواثق على سنن والده في ربط الصلات بالسلطان المريني أبي يوسف، وجوابا على سفارة مغربية للتعزية والتهنئة أرسل الواثق بوفادة سنة 677هـ/1278م ترأسها أبو العباس الغماري[76] قاضي بجاية تحمل هدية حافلة عظم موقعها لدى السلطان المريني الذي أكرم الوفادة وأجل مقدمها وقد كان للسفير الغماري صيت طيب بالمغرب تحدث عنه الناس ردحا من الزمان[77].

**-أثر سفارة العلماء في توثيق العلاقات بين الدولتين:**

إن السفراء لم يكونوا يكتفون بتبليغ الرسائل وتأدية المهام المنوطة بهم، وإنما يغتنمون فرصة حلولهم بالبلد المبعوثين إليه ليتفرغوا للمناقشة والمناظرة في مجالس وحلقاته[78]، فهذا أبو إسحاق التنسي، كان كلما زار مدينة فاس سواء في مهمة خاصة أو في إطار المهمات الدبلوماسية، التي كانت يقوم بها بين العاهلين الزياني والمريني، يجتمع به فقهاء المدينة ويطلبون منه دروسا في الحديث، وقد كان يدرس هذه العلوم بمكة والمدينة، وكان يحضر مجلسه عالم فاس في ذلك الوقت أبو الحسن الصغير وصار يعد من أساتذته بهذه الديار، ترك أبو إسحاق سمعة علمية طيبة في الأقطار التي زارها، وكانت له هيبة عند الفقهاء والأمراء[79].

وكان من عادة السلاطين حبهم للمحاورة مع السفراء وذكر ابن مرزوق في المسند الحوار الذي كان بينه وبين السلطان أبي الحسن إذ قال: "قدمني رسولا مع الوزير أبي عمران موسى بن إبراهيم بن عيسى الزياني إلى بجاية

لقد أصبحت الدولة الحفصية بعد هذه المصاهرة أقوى صلة وأكثر ارتباطا، ولهذا نراها تشاطر السلطان أبا الحسن اهتمامه في الجهاد ضد نصارى قشتالة، وعلى إثر ذلك وردت سفارة من المرينيين إلى تونس سنة 740هـ/1339م تطلب فيها بتجهيز الأسطول، وذلك أعقاب المعركة التي حدثت بين النصارى وأبا الحسن، فأرسل إليه السلطان أسطولا وعين عليه القائد زيد بن فرحون، وقد استطاعوا بفضله خرق الحصار الذي كان القشتاليون يضربونه على الذين يحاولون الجواز إلى الأندلس وحققوا نصرا كبيرا عليهم[68].

في سنة746هـ/ 1345م تولى الإمام السطي سفارة من أجل رسم خطبة بنت السلطان أبي يحي للأمير أبي الحسن المريني[69]، وتمت الخطبة بنجاح وتم الاتفاق على الصداق سنة 747هـ/1346م، وعلى إثر ذلك تعززت العلاقات بين الدولتين وقد ذكرنا فيما سبق كيف أصبحت تونس بعد هذا الحدث أقوى صلة وأكثر ارتباطا مع المغرب من أي وقت مضى[70].

إن كان بعض الفقهاء وفقوا في السفارة من أجل المصاهرة فابن مرزوق يعتبر من العلماء الذي سجنوا ثلاث مرات مختلفة لأسباب سياسية، كلها ترتبط بالأجواء السياسية السائدة بالمنطقة، وبطبيعة الدسائس، فقد سبق وان سجن من طرف لدن السلطان العبد الوادي أبو ثابت مثلما سبق ذكره.

سجن ابن مرزوق مرة أخرى عندما أرسله السلطان أبو عنان لخطبة الأميرة الحفصية، بنت أبي يحي أبي بكر وعين على ترأسها أبو عبد الله محمد ابن مرزوق، وقد رفضت الزواج منه وقالت: "بلغني أن فيه قلقا يمنع من عشرته"[71]، ونتيجة لرفضها الزواج أدى هذا إلى سجن ابن مرزوق ستة أشهر بسبب فشله خطبتها، يبدو أن السلطان المريني انساق وراء الوشايات التي ألبته على ابن مروزق لعدم تفانيه في تحقيق الخطبة[72] إذ يقول ابن مرزوق: "فوجد الحسدة سببا لما كانوا عاملين عليه من الطعن في جهتي"[73]، وأما مضمون الوشاية، فتتمثل في إشاعة خبر اختفاء الخطيبة بتونس، بدعوى

**أولا: سفارات من أجل تجديد الصلح.**

ترأس ابن مرزوق سفارة بطلب من السلطان أبي الحسن إلى بلاد افريقية مع أبي عمران موسى بن إبراهيم بن عيسى الزناتي، من أجل التفاوض مع الأمير الحفصي لتعيين ابنه يحي إذ قال: "فوصلنا بجاية وكان بيننا وبينه من الحديث ما كان عرض لنا فقهاؤها وصلحاؤها طالبين ووصول إمامنا إليها ودخولهم تحت إيالته[64]، ولقد استطاع ابن مرزوق بحنكته السياسية وثقافتهم ومكانته أن ينجح في سفارته ويعين المناطق التي لكل الطرفين، وهو ما نستشفه من خلال الحوار الذي دار بينه وبين السلطان الحفصي.

ثانيا: سفارات من أجل المصاهرة وتبادل الهدايا.

من المهام التي كلف بها أيضا العلماء والفقهاء، السفارة من أجل المصاهرة باعتبارهم من علية القوم وأكثرهم شأنا والممثلين للسلطان في الخطبة ومن الأمثلة على ذلك:

**-سفارة 730هـ/1329م.**

بعد أن استولى الزيانيون على تونس بعث السلطان أبو بكر بن زكريا[65] الذي كان جريحا في بونة سفارة إلى السلطان أبي سعيد المريني يستصرخه ضد الزيانيين، عين عليها ابنها الأمير أبي زكريا ووزيره أبي محمد ابن تافرجين، وقد لقيت هذه السفارة الترحيب الكبير وخاطب أبا سعيد الوفد الحفصي قائلا: "والله لأبذلن في مظاهرتكم مالي وقومي ونفسي ولأسيرن بعساكري إلى تلمسان فأنازلها"، وتمكن أبو سعيد من الوقوف معه ضد الزيانيين واستطاع في إعادة أبو زكريا على كرسي الحكم، ولهذا نجد بعد أن استتب الحكم للحفصيين قرر السلطان أبو سعيد إرسال سفارة برئاسة إبراهيم بن أبي حاتم العزفي[66]، وقاضي فاس أبو عبد الله بن عبد الرزاق، وقد اجتمعوا بالسلطان أبي بكر الحفصي حيث حملوا إليه تهاني السلطان المريني إلى عرشه وبلغوه رسالة المصاهرة بخطبته للأميرة فاطمة لابنه أبي الحسن وهكذا أثمرت هذه السفارة بمصاهرة بين البلاطين[67].

**-سفارات من أجل النصرة:**

في سنة 766هـ/1264م عندما خرجت بجاية من يد الأمير عبد الله استنجد بطلب النصرة من السلطان أبي حمو ووجه إليه سفارة ترأسها يحي بن خلدون[59] يستأذنه في القدوم إليه، وبعدها أرسل سفارة أخرى وعين عليها الفقيه أبا عبد الله محمد بن يوسف القيسي وقد كان لهذه السفارة أثر كبير حيث تمكن من الحصول على رضا السلطان أبي حمو من أجل استقباله ورحب به إذ قال صاحب زهر البستان: فكان وصوله لتلمسان في ثامن جمادي الأخرى وحلوله بخير مكان، فبايعه بمشوره المنيف، ولقي منه ما رجاه من الأمن بعدد التخويف فأنزله بدار الكرامة وتوعده بالموالاة في لظعن والإقامة ببني عبد الواد[60].

تحدث أيضا ابن بطوطة، أنه عندما قام برحلته من تلمسان إلى تونس، أنه عندما وصل إلى تلمسان في عهد السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن بن موسى[61]، وجد بها رسولي السلطان أبي يحي، وهما قاضي الزواج بمدينة تونس أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن علي بن إبراهيم النفزاوي[62]، والشيخ أبو عبد الله محمد الحسين بن عبد الله القرشي الزبيدي، ولم يشير ابن بطوطة إلى المهمة التي كلفا بها في تلمسان، وذكر فقط انه رافقهما أثناء عودتهما إلى تونس، قال ابن بطوطة: "إلى أن وصلنا مدينة تونس، فبرز أهلها للقاء الشيخ أبي عبد الله الزبيدي، ولقاء أبي عبد الله النفزاوي، فأقبل بعضهم على بعض بالسلام..."[63].

**-سفارات العلماء بين الدولتين المرينية والحفصية.**

كانت العلاقات بين الدولتين الحفصية والمرينية جيدة في اغلب الفترات، ولم تعرف التوتر الذي عرفته الدولة الزيانية، لذا نجد أن أغلب السفارات كانت أثناء فترة السلم. ولهذا قمنا بتقسيم هذا السفارات إلى:

وقد وردت في كتب التراجم أسماء لعلماء تولوا السفارة بين الدولتين، لكن النصوص لم تسعفنا لمعرفة أسباب هذه السفارات وظروفها أمثال: محمد بن منصور الغماري الصنهاجي التلمساني الشهير بالأشهب (ت791هـ/1379م) قال تلميذ الإمام ابن مرزوق الحفيد شيخنا الإمام العلامة من توفي بفاس وقد توجه رسولا إليها من تلمسان في أواخر سنة 781هـ/1389م"[55].

**-سفارات العلماء بين الدولتين الحفصية والزيانية:**

**أولا: دور العلماء في السفارة أثناء الحروب.**

من أبرز العلماء الذين تولوا السفارة بين الدولتين، شخصية الفقيه أبو عبد الله الشريف الذي استعمل في أكثر من مرة في السفارة بين دول المغرب الإسلامي، ولقد رأينا فيما سبق أنه استعمل للسفارة بين الزيانيين والمرينيين، حيث ترأس سفارة بطلب من أبي حمو الثاني إلى صاحب بجاية الأمير أبو إسحاق ابن أبي يحي الحفصي لطلب الصلح سنة 794هـ/1363م، لكن الفقيه لم يصل إلى مدينة بجاية لان السلطان أبي حمو أرسل من أعاده إلى تلمسان[56].

**ثانيا: دور العلماء أثناء فترات السلم.**

أول سفارة كانت بين الدوليتين عام 670هـ/1271م، لا نعرف بالضبط غاية هذه السفارة، وقد وردت عن ابن قنفذ أن السلطان الحفصي أرسل "الفقيه أبو سالم القاسم بن أبي بكر ابن زيتون اليمني في سفارة إلى يغمراسن"[57].

في سنة 762هـ/1360م "قدم لتونس الفقيه أحمد البنزرتي من مدينة فاس وقدم معه رسولين بهديتين أحداهما من قبل صاحب فاس السلطان عبد الحق المريني والأخرى من قبل صاحب تلمسان...فأنزلا في دارين عظيمتين"[58]، إلا أنه لا تشير المصادر لسبب هذه السفارة، وهي على الأرجح تدخل ضمن سفارات المجاملة.

وتطاول الحديث بكلام يليلن النفوس، ويذهب بالبؤس، ثم سكنت همهمة الأصوات، وطمحت الأصوات بالالتفات... "[49].

وهكذا تم عقد الصلح بين الطرفين وتمكن من خلال ذلك أن يفك الأسرى من بني عبد الواد، وكان لهذا الصلح الأثر الكبير على الدولتين وهو ما ذكره لنا صاحب زهر البستان "ولما انصرف الرسولان ورفع الله سبحانه سبب الخلاف والشنآن، شاع الخبر في الأقاليم، وفرح الخاص والعام بهذا الصلح الدائم..."[50].

في سنة 767هـ/1365م أرسل السلطان أبو حمو الفقيه أبا عبد الله الشريف الحسني ومحمد بن عمر البريطل رسولين إلى السلطان المريني من أجل عقد الصلح بين الدولتين، وقد نجحا في سفارتهما[51]، ولا تذكر المصادر الغاية من هذه السفارة ولا نتائجها.

**ب-سفارات العلماء بين الدولتين الزيانية والمرينية أثناء السلم.**

عرفت العلاقات الزيانية والمرينية فترات من السلم، حيث كانت تشكل تبادل الهدايا بين الدولتين من أهم المظاهر التي تأكد على رغبتهم في استمرار الصلح وتجديده.

ففي سنة764هـ/ 1362م أرسل السلطان المريني أبو زيان بن أبي عبد الله سفارة عين عليها الفقيه عبد الرحمن بن محمد بن الإمام[52]مع الوزير عمر بن عبد الله بن علي، وكانوا محملين بهدية إلى السلطان أبي تاشفين مشتملة على عشرين فرسا مسرجة ملجمة[53].

من أجل تأكيد الصلح بين الطرفين سنة 776هـ/1374م ذكر يحي بن خلدون قائلا: "أرسل أبو حمو الشيخ أبا عمران موسى بن خالد بن محمد إلى ملك المغرب السلطان أبي العباس أحمد لتجديد عهد المصادقة وتثبيت عقد السلم فتكمل ذلك وعاد"[54].

أرجع ابن مرزوق فشل السفارة وسجنه إلى أنه لما أرسل كتبه إلى السلطان أبي الحسن سر السلطان بها وكتب له ابلغ الكتب ولم يكتب لبني عبد الواد فيقول: أنه لما وصلت كتبي دون كتبهم اتهموني وسعى بي من سعى[40].

كما بعث المرينيون سفارة برئاسة السلطان الأمير تاشفين بن عبد الواحد بن يعقوب[41]. ووفد هام من زعماء وفقهاء بني مرين، وقد نجحت هذه السفارة في التمهيد لإبرام عقد الصلح بين الدولتين، ومع الأسف لا تشير المصادر التي بين أيدينا إلى أسماء هؤلاء الفقهاء، ولاشك بأنهم كانوا من كبار العلماء الأجلاء في تلك الفترة.

في سنة763هـ/1361م أرسل الفقيه أبو القاسم بن رضوان رسولا من قبل السلطان أبي سالم[42]، إذ ذكر صاحب زهرة البستان الحوار الذي دار بين الرسول ابن رضوان والسلطان أبي حمو أورد قائلا: "ثم قال ابن رضوان المذكور: عن مولاي أبا سالم بع ثم قال له: لك ذلك"[43] وتمكن بذلك من تحقيق هدنة لمدة أربعة أشهر كاملة ونال كل واحد من الصلح أمله[44].

أورد صاحب البستان في حديث يطول كيف تم إبرام الصلح بين السلطانين أبي زيان محمد بن يعقوب[45] والسلطان أبي حمو، وقد برزت نية حرص أبي حمو لعقد الصلح إذ جاء في زهر البستان على لسان أبي حمو"نعم ما ذهب إليه أبو زيان، ونعم السجية الأمان من السلطان، هذا رأي يجب أن يساعد عليه شرعا، وينقاد إليه المسلم طوعا، لاسيما ألفة كلمة الإسلام التي هي عمدت الاعتصام"،[46] ومن أجل إبرام شروط الصلح أرسل أبو زيان القاضي والفقيه أبا سالم البرجي[47].

أما أبو زيان فعين الفقيه العالم محمد الشريف محمد ابن أحمد الحسني التلمساني[48]، وقد أورد صاحب البستان كيف تم ذلك إذ قال: "...فأقام إليه السيد الشريف، وقال : "يا أمير المؤمنين: لا أحد أنصف من نفسه من أئمة المسلمين، ثم أخذ في الإطناب، وفيما نالاه في إصلاح ذات البين من الثواب،

مشهود[33]، وكانت الأسباب التي جعلت أبا عنان يختاره لذلك مكانته العلمية بتلمسان التي لم يكن ينافسه فيها أحد خاصة مع توجه جل العلماء آنذاك في صحبة السلطان أبي الحسن[34](732هـ/1331م -759هـ/1358م) المريني إلى افريقية، إضافة إلى أنه لم تكن في عنقه بيعة لأي سلطان[35].

يتضح من خلال ما سبق أن سلاطين المغرب الإسلامي، وضعوا معالم دبلوماسية تنظم وتضمن استمرار علاقتهم مع غيرهم من الدول، حيث وضعوا ضوابط وشروط في اختيار السفراء، وهو ما يظهر جليا في اختيارهم لشخصية العالم أو الفقيه الذي اعتبر الأقدر أكثر من غيره في نجاح المهمات التي يكلف بها .

**-دور علماء المغرب الإسلامي في الصراعات السياسية والعلاقات السلمية.**

**أولا: جهود العلماء في السفارة أثناء الحروب.**

**أ- سفارات العلماء والفقهاء بين الدولتين الزيانية والمرينية:**

قام العلماء والفقهاء بعدة ادوار في الصراعات السياسية التي شهدها بلاد المغرب الإسلامي، ومن الأدوار التي قام بها العلماء خلال الأحداث والصراعات الخارجية:

- تكليف الفقيه محمد بن مرزوق الجد[36] في سفارة من طرف أبي سعيد[37]، ذلك أنه لما استعاد عرش تلمسان من المرينيين فكر أبو السلطان أبو الحسن في حشد قواته والزحف على تلمسان لاسترجاعها فرأى السلطان الزياني المخرج في الحل الدبلوماسي فاستدعى ابن مرزوق إذ يقول هذا الصدد" فلما وصلت تلمسان رغب مني سلطانها أبو سعيد عثمان وأخوه أبو ثابت محاولة الصلح مع السلطان أبي الحسن فأقمت بتلمسان ووجهت له فجاء من تونس إلى الجزائر عازما على الصلح"[38]،غير أن مهمة ابن مرزوق فشلت بسبب سجنه من طرف أبي ثابت شقيق السلطان أبي سعيد لعدم علمه بهذه المأمورية فغضب على أخيه وعاتبه وأمر بسجن الفقيه ابن مرزوق[39].

علاقاتهم بهم سيئة لأنهم بحاجة ماسة إلى تأييدهم وتعاونهم[27]، حيث استدعى السلاطين الفقهاء إلى بلاطاتهم ونظموهم في مجالسهم العلمية وأكرم أبو حمو موسى الأول الفقيهين أبي زيد عبد الرحمن بن محمد (ت743هـ/1342م) وأخيه أبو موسى عيسى.

ولعل هذا ما جعل الكثير من فقهاء السياسة الشرعية من أمثال الإمام الجويني أن يقول: "بضرورة وجوب مراجعة العلماء فيما يأتي ويذر، فإنهم قدوة الأحكام وأعلام الإسلام وورثة النبوة، وقادة الأمة وسادة الملة، ومفاتيح الهدى ومصابيح الدجى، وهم على الحقيقة أصحاب الأمر استحقاقا وذووا النجد، مأمورون بارتسام مراسمهم واقتصاص أوامرهم والإنكفاف عن مزاجهم....فأما إذا كان سلطان الزمان لا يبلغ مبلغ الاجتهاد فالمتبوعون العلماء، والسلطان نجدتهم، وشوكتهم، وبدرقتهم، فعالم الزمان في المقصود الذي نحاوله والغرض الذي نزاوله كنبي الزمان، والسلطان مع العالم، كملك في زمان النبي، مأمور بالانتهاء إلى ما ينهيه إليه النبي[28].

أما الإمام الغزالي فقد أشاد بدور الفقيه وعلمه بقانون السياسة إذ قال:" فالفقيه هو العالم بقانون السياسة، وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات، فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا ولعمري إنه متعلق أيضا بالدين لكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا، فإن الدنيا مزرعة الآخرة ولا يتم الدين إلا بالدنيا، والملك والدنيا توأمان، فالدين أصل والسلطان حارس، ومالا أصل له فمهدوم، ومالا حارس له ضائع.."[29]. ومن هنا يتضح لنا حرص السلاطين على اتخاذ حملة العلم شعارا لمملكتهم، لما فيه، من استمالة لقلوب الرعية وإخلاص نياتهم لسلطانهم واجتماعهم على محبته وتوقيره[30].

من نماذج تقريب سلاطين المغرب الإسلامي للعلماء، أنه لما نقض السلطان أبو عنان[31] (749هـ/1348م .759هـ/1358م) بيعة أبيه ندب الفقيه أبا عبد الله المقري[32] (ت759هـ/1359م) لكتابة البيعة فكتبها وقرأها على الناس في يوم

والنيابة عنك، رجلا حصيفا، بليغا حولا قلبا، قليل الغفلة منتهز الفرصة، ذا رأي جزل وقول فصل، ولسان سليط"[18].

كما أكد ابن رضوان على ذلك بقوله: "...ذا بيان وعبارة بصير بمصادر الكلام، وأجوبته، مؤديا لألفاظ الملك، ومعانيها صادق اللهجة"[19].

**ج- العلم بالنظم السياسية:**

هي التحصيل العلمي الذي يملكه العالم في الجانب الشرعي وتفقهه فيه، وهو ما حرص الإمام القلقشندي في كل مرة كان يستعرض فيها النظم السياسية التي يجب أن تتوفر في الكاتب[20] إذ قال: "والكاتب الماهر يوفي كل مقام ويعطي كل الفصول المستحقة"[21] وقال أيضا في موضع أخر: "وهذا الفن من المكاتبات له من الدولة محل خطير، ومن المملكة موضع كبير، ويتعين على الكاتب أن يخلي له فكره ويعمل فيه نظره ويتوفر عليه توفرا يحكم مبانيه ويعطي كل فصل من الفصول مستحقة[22]، لهذا لا بد أن يكون" متقنا للشروط الشرعية المعتبرة في صحة العقد، بحيث لا يصح عقد الهدنة مع إهمال شيء منها"[23]، وقال أيضا: "ومنها أن يتحفظ من سقط يدخل على الشريعة نقيصة"[24].

وقد عمل بهذه النصائح سلاطين المغرب وهو ما نستشفه من خلال ما أورده صاحب زهر البستان عن السفارة التي ترأسها أبي القاسم ابن رضوان صحاب الإنشاء لأبي سالم السلطان[25]، "بعثه لتكملة الإشهاد على المولى أبي حمو مللك بني عبد الواحد... لان ابن رضوان هذا ناظورة كتاب الأندلس والمغرب، وصاحب الإنشاء المطرب المعجب، بعثه سلطانه أبو سالم للمباهاة ولإعظام هذا المصالحة والموالاة لتقرب ذكائه وفطنته وتقربه منه ومكنته"[26].

**ثالثا: أسباب سياسية:**

هي أسباب تتعلق بالسلطة الحاكمة وتتعلق أيضا بالعلماء، فأما ما يتعلق بالسلطة، فإن الغرض منها الاعتماد على هؤلاء الفقهاء هو البحث عن التأييد والشرعية وتقديرها للعلماء والفقهاء، إذ ليس من مصلحتهم أن تكون

بدينه وأمانته، مجربا منه حسن الاستماع والتأدية، كتوما للأسرار، عفيفا عن الأطماع، غير منهمك في الهوامش والسكر والشرب"[10].

من الأخلاق التي كان يتحلى بها الفقهاء الجرأة في قول الحقيقة والصدق فيها حيث يقول ابن الفراء في هذا الشأن قائلا: والرسول مع هذه الأمور محتاج من الإقدام والجرأة إلى مثل ما يحتاج إليه من الوقار والركانة، لأنه ليس كل الطبقات يشتد، ولا لكلها يلين، وربما لم يسعفه إلا أن يصدع بالرسالة على ما فيها فمن لم يكن جريئا حرفها، وأخل بها وأفسد معانيها"،[11] ومن الأمثلة على ذلك رفض الفقيه أبي الحسن التنسي[12](700-706هـ/1300-1306) العودة إلى مدينة تلمسان، بعد أن كلفه سلطانها برسالة إلى السلطان أبي يعقوب المريني[13].

**ثانيا: الأسباب العلمية.**

يمثل العلماء والفقهاء النخبة المهمة في المجتمع، وهذا ما رشحهم لتولي منصب السفارة، ناهيك عن معرفتهم بالأحكام الشرعية التي لهم دراية بها في مجال الحروب وميدان السلم، إضافة إلى مجموعة من المميزات والشروط التي تميزهم عن غيرهم ومنها:

**أ-الخطابة**: تعد الخطابة إلى جانب الإمامة من الوظائف الأساسية في المسجد، إلا أنها ارتبطت هي الأخرى بالسفارة وهذا مرده لكون الخطابة وظيفة إعلامية مهمتها الأساسية التأثير في الآخرين[14]، ومن العلماء الذين تولوا الخطابة والسفارة نذكر: أبي محمد الحباك[15]، وابن مرزوق الخطيب[16].

**ب-الفصاحة:**

من المسلمات التي يجب توفرها في السفير، أن يكون فصيح اللسان وهي ملكة مكتسبة تتوفر في العالم، ولهذا حرص السلاطين على توفرها في السفير إذ يقول أبو حمو عن السفير "فصيح اللسان حسن العبارة والبيان"[17]، أما ابن الفراء فيقول: "اختر لرسالتك في هدنتك وصلحك ومهماتك ومناظرتك

للعب دور الوسيط والإصلاح بين المتخاصمين، فكلفوا بعدة سفارات ومراسلات بين مختلف الأطراف[4]، وعليه نطرح االسؤال التالي: لماذا تم اختيار العلماء للقيام بالسفارة؟ وهل استطاعوا تخفيف حدة الصراع بين هذه الدول؟ وما هو أثر ذلك على العلاقات فيما بينهم ؟

- **أسباب اختيار العلماء للسفارة:**

**أولا: أسباب أخلاقية:**

يعد منصب أو وظيفة الرسل من الوظائف الأساسية التي عرفتها بلاد المغرب، واعتبرت على غرار المناصب المهمة الأخرى كالحجابة والوزارة، وقد أكد السلاطين على مجموعة من الشروط يجب توفرها فيمن يتولى السفارة، فاعتبروا الأخلاق من أهم الشروط التي يجب أن يتميز بها السفير لأن أخلاق السفير هي أخلاق الإسلام التي بينها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، ووضع أصولها رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته، وصحابته الكرام في سلوكهم القائمة على الفضيلة والقيم، فأعتبر صدق السريرة وحسن الخلق من أوكد واجبات من يتولى السفارة[5] وهذا مصداقا لقوله الله **تعالى**: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه وكونوا مع الصادِقِين)[6]، وقول عز وجل: (أتأْمرون الناس بالْبر وتنسوْن أنفسكمْ وأنتمْ تتْلون الْكِتاب أفلا تعْقِلون )[7].

لهذا نجد أن أغلب المصادر التي وقعت بين أيدينا تركز على الصدق والأمانة التي يجب أن تتوفر في السفير إذ يقول ابن رضوان: "فيجب عليك أن تختاره أرفع من بحضرتك عقلا وبصيرة وهيئة وأمانة، مجنبا لجميع الريب، فإن وجدته كذلك، فأرسل به وفوض إليه، بعد أن تعرف غرضك، ولا توصيه بما يأتي به ...وإن لم يكن بهذه الصفة فليكن أمينا ثقة يقظا"[8].

وهو ما أوصى به أيضا أبو حمو موسى الثاني الزياني ابنه قائلا: "أن يكون صادق القول حافظ على الأسرار، كاتما لجميع الأخبار"[9]، وأما الماوردي فيقول: "أن تكون صولاته رائعة المنظر، كامل المخبر، صحيح العقل، حاضر البديهة، ذكي الفطنة، فصيح اللهجة، جيد العبارة، ظاهر النصيحة، موثوق

إلى أهم الآثار والنتائج التي حققتها هذه السفارات على العلاقات الثقافية والاقتصادية للدولتين.

**Abstract :**

Since the beginning of the seventh century AH XIII AD, The Islamic Maghreb witnessed the collapse of Almohad's state which led to the split of the Islamic Maghreb into three mini-states: The Marinides in the Maghreb Aksa, and The Ziyyanids in the Middle Maghreb, also the Hafsid's state in tunisia, therefore wars were undecided between these countries, and this study was presented to discuss mutual embassies between the two countries during Ziyyanids and Al Marinides during the seventh and eighth centuries AD, and their role in easing the conflict between the two states, especially as the embassies were doing the talking for the sultans in that period and negotiating on their behalf, for this the Ambassador was considered the link to achieve their goals, that's why the sultans did their best to choose carefully the characters that have the understanding and necessary qualifications so that they can succeed to influence, also to be good at expressing the content of what the embassy has to represent, and perhaps in the forefront of these qualifications strands of science, wisdom, courage and dignity., and at the end, this study concluded the most important effects and results achieved by the embassies for the cultural and economic relations of the two countries.

**-مقدمة:**

السفارة من أسس الحكم على مر التاريخ، وأصل السفارة[1] الصلح بين الناس فقد عرف ابن منظور السفير بالرسول والمصلح بين القوم[2]، وفي أوقات الأزمات تظهر الحاجة إلى إرسال العلماء كسفراء؛ لأنهم الأقدر من غيرهم على معالجة الأمور بروية وحكمة[3].

وقد شهدت بلاد المغرب الإسلامي منذ مطلع القرن السابع هجري الثالث عشر ميلادي، تداعي الدولة الموحدية مما أدى إلى انقسام المغرب الإسلامي إلى ثلاث دويلات: الدولة المرينية في المغرب الأقصى، والدولة الزيانية في المغرب الأوسط، والدولة الحفصية في إفريقية، وكانت الحروب سجالا بين هذه الدول، مما أدى إلى مشاركة العلماء في الحياة السياسية بوقوعهم طرفا في الصراع الدائر بين هذه القوى الثلاث، فقد أقحموا في مهمات سياسية